قراءآت في سور القران

القراءة الثانية

قراءةٌ في سورة

الكوثر

بعضُ أبعادِ الكوثر

وَدِلالاتِه

الشيخ محمد حسين الأنصاري[1]

نتاجات المهدي

ALMAHDI PRODUCTIONS

---

[1] آية الله الشيخ محمد حسين الأنصاري ، له مقامه المعروف في الأوساط العلمية ؛ من مؤلفاته : العصمة ، قراءات في سور القران ، الإمامة والحكومة في الاسلام ، الإستنساخ ومنه البشري ، أحكامه .

بـِسمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ *

إِنـَّا أَعْطَـيْنَـاكَ الكَوْثَـرَ *

فَـصَلِّ لِرَبِّـكَ وَانـْحَـرَ *

إِنَّ شَانِئَـكَ هُوَ الأَبْتَـرَ *

ما قبل التفسير :

أولاً وقبل كل شئ نقول :

لفظ السورة إما مأخوذ من السور الذي يجمع و يُحافِظ على ما فيه ، أو من السؤرة بمعنى القطعة .

فلذا قالوا ((سميت السورة سورة ، لأنها تشبه سور المدينة باعتبار أنها معجزة تردّ شبه الكفار وسهامهم نحو الدين الإسلامي ، فهي سور للشرع الإسلامي والدين المحمدي ، يدفع بها شبه الكافرين عن الدين المبين ، كما إن سور المدينة يدفع اعتداء المعتدين عليها .))[1] .

أو ((يكون إطلاقها على سورة القرآن بمعنى القطعة من القرآن))[2] على الرأي الثاني .

و يمكن أن يُقال إن الإطلاق كان بمناسبة المعنيين .

ولكن نحن نعلم علم اليقين بأن تسمية هذه المقاطع من القران الكريم بالسور جاء من قِبَل الله تعالى إذ قال تعالى : ((فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِه))

فلم يشتقها أحد ، بل الله إختار مجموعة من آياته التي أنزلها على صدر حبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم و جعل لها عنواناً مشتركاً .

و لذا كان كل الذي تقدم من قبيل التعليل بعد الورود .

إلا أن نقول بأن العربية من وضع الله تعالى وهو قد خصها بقوانين ضمناً ، استخرجها ذوو الإختصاص ، وهو الرأي الذي نميل إليه[3] .

المهم الآن هو أن هذه السورة بالخصوص قد عنونت بهذا العطاء الإلهي العظيم ، الذي سماه رب العزّة بالكوثر .

فقد اتفقت جميع المصاحف والتفاسير على تسميتها بسورة الكوثر ، إلا البخاري فقد عنونها في صحيحه بسورة (إنا أعطيناك الكوثر) ، وحتى صاحب الإتقان لم يجعلها ضمن السور التي لها عنوانان .

1 الهادي فيما يحتاجه التفسير من المبادئ / آية الله العظمى الشيخ هادي كاشف الغطاء " قدس سره" .
2 المصدر نفسه .
3 وقد كتبنا رسالة مفصلة في بيان حقيقة وضع اللغة العربية ، وقد طبعت .

نعم ((نقل سعد الله الشهير بسعْدِي في " حاشيته على تفسير البيضاوي " عن البِقاعي أنها تسمى (سورة النحر) .))[1] .

و جاء في روح المعاني : ((سورة الكوثر وتسمى كما قال البقاعي سورة النحر))[2].

وعلى طريقة السابقين قال صاحب التنوير((ومن السورة التى يذكر فيها الكوثر وهى كلها مكية آياتها ثلاث ، وكلماتها عشر ، وحروفها اثنان وأربعون .))[3] .

1 نقلاً عن تفسير التحرير والتنوير / العلامة الطاهر بن عاشور التونسي .
2 روح/ 30/ 244 .
3 تنوير القباس من تفسير ابن عباس / الفيروز آبادي .

خصائصها :

1) : هيَ أصغر سورة في القران العظيم .

ولو قال قائل إنها ثلاث آيات من غير البسملة ، وسورة العصر وسورة النصر كذلك، فالجواب واضح وظاهر إذ أنّ عدد كلماتها أقل .

2) : نزلت في مكة المكرَّمة . وبه قال أكثر المفسرين [1].

ولذا قال بعضهم : ((هل هي مكية أو مدنية ؟ تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضاً شديداً ، فهي مكية عند الجمهور ، واقتصر عليه أكثر المفسرين ، ونقل الخفاجي عن كتاب (النشر) قال : أجمَعَ من نعرفه على أنها مكية . قال الخفاجي : وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها .))[2] .

ويقصد بالإختلاف لوجود قيلٍ انها نزلت في المدينة ، ولذا قال المحلي والسيوطي في تفسير الجلالين ((سورة الكوثر مكية أو مدنية ..))[3] . وإن كان الثاني قيلاً أمام الأول .

وقيل وهو أبعدها إنها نزلت مرتين .

3) : لسانها خطاب خاص لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

4) : بل لها خصوصية تنفرد بها عن باقي سور القران الكريم مطلقاً من أنها من أول آياتها إذا لم ندخل البسملة في الحساب لآخرها خطاب من الله مع عبده ورسوله .

ولو ظننت أن سورة (والضحى) أو (الإنشراح) كذلك ، لرأيت خلافه .

وذلك لأن آيات الأولى هي :

بسم الله الرحمن الرحيم * والضُّحَى * واللَّيْلِ إِذَا سَجَى * ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى .....إلى آخر السورة .

وهكذا (الإنشراح) :

بسم الله الرحمن الرحيم * أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَك * وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا * فَإِذَا فَرَغْتَ فانْصَبْ * وَإِلى رَبِّكَ فارْغَبْ *

---

1 أنظر مثلاً : تنوير المقباس من تفسير ابن عباس / الفيروز آبادي ؛ روح المعاني الآلوسي / ج30 / ص188 ؛ تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل / النسفي (ت 710 هـ) ؛ تفسير انوار التنزيل واسرار التأويل / البيضاوي (ت 791 هـ) / ج5 / ص 536 .

2 تفسير التحرير والتنوير / العلامة الطاهر بن عاشور .

3 تفسير الجلالين - جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ت 864 هـ ، وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت 911هـ / 1 / 824 / الناشر : دار الحديث – القاهرة / الطبعة الأولى .

فالأولى آيتان فيها مجرد قسم وليس خطاباً ظاهراً له صلى الله عليه وآله ، وإن كان من لفظ الباقي يفيد أن القَسَمَ موجه له ، ولكن نحن والمنطوق .

والسورة الثانية فالأمر أوضح فيها ، فالآيتان :

((فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا *)) ليس فيهما إلا إنباء وإخبار ، و إن كان كل ذلك موجه له صلى الله عليه وآله ، إلا أن سورة الكوثر يختلف الأمر فيها .

بيان ذلك :

سورة الكوثر كل آية فيها ضمير عائد عليه صلى الله عليه وآله وسلم :

(إنا أعطيناك الكوثر) ، (فصل لربك وانحر) ، (إن شانئك هو الأبتر) ، فلاحظ الكاف في (أعطيناك) ، والضمير في (فصلِّ) و في (وانحر) ، ثم الكاف في (شانئك) وهذا ما يُفتَقَد في السورتين المذكورتين ، وإن كان الخطاب بين المولى وعبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

4) :جاءت لِتطمين نفسه الشريفة ، ومواساته أمام اعتداء الأعداء ، و تجاوزهم عليه.

5) : وتذكيره بإعطائه (الكوثر) ، ولا نزيد .

6) : ثم أمره بالصلاة والنحر ، تفريعاً على ذلك .

5) : ثم توكيد خسران شانئه ومبغضه من الأولين والآخرين للإطلاق .

هذا هو المعنى الإجمالي الظاهري للسورة المباركة .

ولو دققنا لرأينا العجب العجاب إذ بها تحدّى الله تعالى الأولين والآخرين .

قال الشيخ الطبرسي في مجمع بيانه : ((وفي هذه السورة الموجزة مِن تشاكل المقاطع للفواصل ، وسهولة مخارج الحروف بحسن التأليف ، والتقابل لكل من معانيها بما هو أولى به ما لا يخفى على من عرف مجاري كلام العرب .)) [1].

1 مجمع البيان في تفسير القران / الشيخ الطبرسي ، ت 548هـ .

بعض ما تحويه من بدائع عربية :

فلِنلْقِ نظرة سريعة على جملها ، وكلماتها ، لننظر لبعض ما تحويه من بدائعٍ و لَطائف :

عدد آياتها ثلاثة ما عدا البسملة كما ذُكر قبل قليل.

عدد كلماتها : عشرة فقط ، من غير البسملة التي هي أربعة ، فمجموع كلماتها أربعة عشر كلمة ، والحكم يناسب الموضوع كما يقولون ، فتأمل .

عدد جُمل السورة أربعة فقط .

للجملة عند علماء البيان تقسيمات عدة ، والمثير للإنتباه أن هذه السورة مع أن جملها المذكورة فيها أربعة فقط إلا أنها تحوي منها ما يحتاج إلى التأمل ، ففيها مثال لأغلب أنواع الجمل وأقسامها ، إذ :

أولاً : الجمل في البيان العربي إما إسمية أوفعلية .

وهذه تحويهما :

فالآية الأولى والآية الأخيرة تمثلان الجملة الأسمية .

وقوله تعالى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) ، و قوله تعالى (وَانْحَرْ) هما من الجمل الفعلية .

ثانياً : الجملة إما خبرية أو إنشائية ، وفيها النوعان :

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) ؛ (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ)

جملتان خبريتان.

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ) ؛ (وَانْحَرْ)

جملتان إنشائيتان طلبيتان .

ثالثاً : تعاقب الجمل : إما أن يكون بالفصل أو الوصل :

وقوله تعالى : (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر) ، يعطيك مثال الوصل :

إذ جملة (انحر) معطوفة على جملة (فَصَلِّ لِرَبِّكَ)

وهي بنفس الوقت أي جملة (انحر) منفصلة عن الجملة اللاحقة (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) وهذا هو الفصل .

رابعاً : يقسِّم أهل اللغة الجملة باعتبار تركيبها من جهة بنيتها إلى قسمين :

الجملة الصغرى وربما يسميها أهل المنطق الجملة البسيطة ، و ثانيتهما تسمى بالجملة الكبرى ويقصدون بها الجملة المركبة في المنطق[1] .

وكلا النوعين موجود في هذه السورة البديعة :

ف (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) : جملة مركبة ، أو هي الكبرى ف (أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) جملة صغيرة في محل رفع خبر إنّ .

ف(أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) فعل وفاعل ومفعول ، والصغرى هي الجملة البسيطة وهذه هي بنفسها .

وهي خبر إنّ المبتدأ بها الكلام ، والذي اسمها ضمير المتكلم للعظمة .

1 راجع المغني مثلاً .

فبهذا أصبحت مركبة .

و آية (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) جملة بسيطة في الإصطلاح إذ فيها إسناد واحد .

وفي سورة الكوثر ما يحتمل الجملتين :

فإن آية (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) قابلة للوجهين :

فلو اعتبرنا " هو " ضمير فصل ، و" الأبتر " خبر (إنّ) فالجملة بسيطة ، ولو اعتبرنا "هو" ضميرٌ مبتدأ و"الأبتر" خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر (إنّ) فالجملة من الجمل الكبرى .

خامساً : الضمائر في سورة الكوثر :

الضمائر في لغة العرب تقسم باعتبارات مختلفة إلى :

1- ضمائر بارزة أو مستترة :

وقد برز كلاهما في هذه السورة :

فالضمير في " أعطيناك " بارز .

وفي " صل " ، و" انحر " مستتر .

2- ضمائر متصلة أو منفصلة :

فالمتصل من الضمائر يظهر في جملة " أعطيناك " .

والمنفصل منها يظهر في جملة " هو الأبتر " .

3- ضمير المتكلم أوالمخاطب أو الغائب .

فضمير المتكلم يبدو في" أعطيناك " .

وضمير المخاطب موجود في" أعطيناك" كذلك ، و" ربك " ، و " شانئك " ظاهراً ، و في " صلِّ " و " انحر " مستتراً .

وضمير الغائب في " هو " من جملة " إنّ شانئك هو الأبتر " صريحا ، وفي شانئ مقدرا .

4- وضمائر باعتبار مقولة العدد :

و كما جاء في السورة الضمير المفرد جاء ضمير الجمع .

ومثالهما في جملة " أعطيناك " .

5 - بل جاءت الضمائر في السورة مرة مرفوعة ومرة منصوبة وأخرى مجرورة ، وهي كل حركات الإعراب :

فالضمير في (أعطيناك) وهو ضمير المتكلم للعظمة فاعل مبني على السكون في محل رفع .

وضمير المخاطب وهو الكاف مفعول به مبني على الفتح في محل نصب .

وضمير المخاطب كذلك في " ربك " في جملة (فصل لربك وانحر) مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه .

6 - ومن جملة ما أشير إليه من لطائف في هذه السورة التناسق الغريب إذ الكلمات الدالة على الله رب العزة ثلاثة ، والدالة على الرسول ثلاثة أيضاً ، والآيات ثلاثة كما ذكرنا ، والأفعال ثلاثة :

فالآيات ثلاثة ما عدا البسملة هو أمر واضح .

والضمائر الدالة على الباري هي :

أ - اسم إنّ .

ب - فاعل أعطى .

ج – و كلمة " رب " في " ربك " .

وقد جاءت على التوالي:

- بالنصب .

- والرفع .

- والجر .

والدالة على الرسول كذلك جاءت :

- ففي " أعطيناك " كاف الخطاب .

- وفي " صلِّ " ضمير مستتر .

- وفي كلمة " ربك " جاءت " الكاف " .

وفي الأول الضمير منصوب ، وفي الثاني مرفوع ، وفي الثالث مجرور على ترتيب ما رجع للباري عز وجل ، فتأمل جيداً .

سادساً : الأفعال لها وقعها أيضاً :

و في هذه السورة ثلاثة أفعال : " أعطى " ، " صلى " ، و " انحر " إلا أنها حملت العجاب :

فهي على قِلتها حوت على :

أ- الفعل الصحيح : نحر .

ب - الفعل المعتل : أعطى .

ج - الفعل المضعّف : صلـَّى .

د - الفعل المجرد : نحر .

هـ - الفعل المزيد : أعطى.

و - الفعل اللازم : صلى .

ز - الفعل المتعدي إلى مفعول واحد : نحر .

طبعاً إذا قلنا إن " انحر " بمعنى التذكية الخاصة بالإبل ، وإلا لو قلنا إن معناه رفع اليدين إلى شحمتي الأذنين عند التكبير في الصلاة لكان هناك فعلان فقط فعل لازم ، مثاله هذا والذي قبله ، وفعل متعد وهو الذي سيأتي.

ح - الفعل المتعدي إلى أكثر من مفعول : أعطى .

ولاتنس من أن جميع كلماتها عبارة عن عشرة كلمات ، احتوت كلَّ ما مرَّ ذكره ، وهنا يكمن العجب .

ولأجل هذا وغيره قال صاحب مجمع البيان الشيخ الطبرسي : ((وفي هذه السورة دلالات على صدق نبينا صلى الله عليه و آله وسلم وصحة نبوته :
أحدها : أنه أخبر عما في نفوس أعدائه وما جرى على ألسنتهم ، ولم يكن بلـَغهُ ذلك فكان على ما أخبر .
وثانيها : أنه قال أعطيناك الكوثر فانظر كيف انتشر دينه وعلا أمره وكثرت ذريته حتى صار نسبه أكثر من كل نسب ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال .
وثالثها : أن جميع فصحاء العرب والعجم قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها ، مع تحدّيه إياهم بذلك وحرصهم على بطلان أمره منذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، وهذا غاية الإعجاز .
ورابعها : أنه سبحانه وعده بالنصر على أعدائه ، وأخبره بسقوط أمرهم وانقطاع دينهم أو عقبهم فكان المخبر على ما أخبر به ...))[1] .

1 المجمع / الطبرسي .

بيان المعنى للمرحلة الأولى :

((بسم الله الرحمن الرحيم))

البسملة واضحة الدلالة عميقة العبارة .
وهيَ مرتبطة بجميع سور القران ، فهي آية في كل سورة ، ما عدا سورة براءة . لذا فلها حديثها الخاص بها ، في محله إن شاء الله تعالى .
نسأل الله تعالى أن يوفقنا للإطلاع عليها بعمق أكثر فأكثر ، إنه وليُّ التوفيق .

الآية الأولى بعد البسملة :

((إنّا أعطيناكَ الكوثر))

الكوثر : ورد أنه نهر في الجنة ، وقيل هو الخير الكثير ، وقيل غير ذلك[1] .

الآية الثانية :

((فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر))

الصلاة هيَ الأفعال المعروفة ، وقد حُدِّدَت في بعض الأقوال ببعض الصلوات ، استفادوها من المعنى العام للسورة ، ولكن مقتضى الإطلاق يشمل هذه الفريضة العظيمة بما هي .
والنحر فيه أقوال مروية ، والمرجَّح منها : إما النحر بمعنى رفع اليدين حذاء الأذنين عند التكبير في الصلاة ، أو نحر الإبل في المناسك .
وقيل إنهما ذُكِرا معاً إشارةً للأفعال القولية والفعلية في الإسلام .

1 وسيأتيك الحديث حول ذلك مفصلاً فانتظر .

الآية الثالثة بعد البسملة :

((إنَّ شانِئَكَ هوَ الأبْتَر))

أي مبغضك هو الأبتر ، المقطوع الذِكْر .

((فتأويل الكلام إذاً : إنا أعطيناك يا محمد الكوثر، إنعاماً منا عليك به ، وتكرمة منا لك ، فأخلص لربك العبادة ، وأفرد له صلاتك ونُسُكَك ، خلافاً لما يفعله من كفر به ، وعبد غيره ، ونحر للأوثان .))[1] .

{ إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأبْتَرُ } يعني إن مُبغضَك يا محمد وعدوّك { هُوَ الأبْتَرُ } ، أي المقطوع الذِّكر المنقطع الدابر ؛ وإن كانت الآية نزلت في شخص بعينه .

((وقوله إنّ شانئك هو الأبتر لا أنت ، هذا تقديره ، أي هو مبتور لا أنت ، لأن ذكرك مرفوع ، مهما ذُكرتُ ذُكرتَ معي ؛ و"هو" فصل ، والأبتر خبر "إنَّ" .))[2] .

هذا هو المعنى الإجمالي لهذه السورة المباركة .

1 الطبري / جامع البيان في تفسير القران .
2 مجمع البيان / الطبرسي .

المرحلة الثانية من التفسير :

نحن والسورة :

قصة هذه السورة وسبب نزولها :

((أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة " إنا أعطيناك الكوثر " بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير ، وعائشة مثله .....

وأخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : توفي القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه و سلم بمكة ، فمر رسول الله صلى الله عليه و سلم وهو آت من جنازته على العاصي بن وائل وابنه عمرو ، فقال حين رأى رسول الله صلى الله عليه و سلم إني لأشنئوه ، فقال العاصي بن وائل : لا جرم لقد أصبح أبتر ، فأنزل الله " إنّ شانئك هو الأبتر " .
وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما " إن شانئك هو الأبتر " قال : هو العاصي بن وائل .
وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل : بتر فلان فلما مات ولد النبي صلى الله عليه و سلم قال العاصي بن وائل : بتر ، والأبتر الفرد .))[1،2] .
وقال صاحب لباب النقول في أسباب النزول : ((وأخرج البيهقي في الدلائل مثله عن محمد بن علين وسمى الولد قاسم .

وأخرج عن مجاهد قال : نزلت في العاصي بن وائل وذلك أنه قال أنا شانئ محمد .)) . ولكنه قال بعدها مباشرة :
(((ك). وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب ، قال : لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى المشركون بعضهم لبعض قالوا بتر الليلة ، فأنزل الله " إنا أعطيناك الكوثر " إلى آخر السورة .)).

1مقدمة السورة / الدر المنثور / السيوطي / 8 / 653 / عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي / الناشر : دار الفكر - بيروت ، 1993 .
2 ومن روى ذلك هم الأغلب من الفريقين ، راجع كتب التفاسير الشيعية منها والسنية ، وأسباب النزول ، ومنها : مجمع البيان .

فانظر لهذا الإرباك ، ففي الأولى القاسم ومكة ، وفي الثانية إبراهيم ، وهو كما يعلم الكل ولد في المدينة .

نعم أورد الإمام السيوطي في لباب نقوله في سبب نزول سورة القدر :

(ك) ، أخرج الترمذي و الحاكم و ابن جرير عن الحسن بن علي قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية على منبره فساءه ذلك ، فنزلت إنا أعطيناك الكوثر . ونزلت إنا أنزلناه في ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر . تملكها بعدك بنو أمية .

قال القاسم الحراني فعددنا وإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص .

قال الترمذي : غريب ، وقال المزني و ابن كثير : منكر جدا .)) [1].

وقد أورد صاحب روح المعاني هذا فقال :

((ويستدل لكونها " القدر " مدنية بما أخرجه الترمذي ، والحاكم ....)) وقد أورد الرواية السابقة ، ثم قال : ((وهو كما قال المزني حديث منكر . انتهى .))[2] .

وكأنه يرى أن الكوثر سورة مدنية .

وقد اختلف العلماء في السور المكية والمدنية على أقوال كثيرة أحصاها السيوطي في " إتقانه " .

و قد اتفقوا على مكية بعض السور أو مدنيتها ، ولكن منها ما اختلفوا فيها .

ومن الروايات التي قدمناها يظهر مكية هذه السورة المباركة ، وإن قال بعض بمدنيتها .

ولذا أرسل مكيتها بعضهم إرسال المسلمات فقال " سورة الكوثر مكية . "[3]

و إن عكس ابن كثير إذ قال : ((وهي مدنية وقيل مكية))[4] .

1 السيوطي / لباب النقول في أسباب النزول / ص 154-155 .
2 روح المعاني / الآلوسي / ج30 /ص188 .
3 البيضاوي / ج5 / ص 536 .
4 تفسير ابن كثير / تفسير السورة .

و أظن ظناً قوياً من أنهم مالوا لكونها مدنية وذلك لِذكر إبراهيم ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون القاسم ، فظنّ مَن نقل ذلك أنها نزلت في المدينة ، لأن إبراهيم ولِد في المدينة من أمِّ المؤمنين مارية القبطية .

والذي يرجّح الظن ويقويه حتى يجعله في مصاف اليقين أن ذلك أي سبب النزول حدث في مكة المشرفة قبل الهجرة وذلك :

أولاً : لأنه تكاد تتفق الروايات على ان الذي قالها واحد من مشركي مكة ، قد نزلت هذه السورة بعد قوله ، لورود اسم العاصي بن وائل في أغلب الروايات ، وكل ما يُذكر من أسماء غير هذا الاسم فهو من مشركي أهل مكة قبل الهجرة .

وإن اختلف فيمن نزلت به .

والإختلاف على أقوال :

((أحدها : أنه العاص بن وائل السهمي ؛ قاله ابن عباس : نزلت في العاص بن وائل، لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب المسجد فوقف يحدثه حتى دخل العاص المسجد ، وفيه أُناس من صناديد قريش ، فقالوا له : مَن الذي كنتَ تُحَدِّث ؟ قال: ذاك الأبتر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يسمون من ليس له ابن : أبتر ، فأنزل الله عز وجل هذه السورة .

وممن ذهب إلى أنها نزلت في العاص سعيدُ بن جبير، ومجاهد، وقتادة .
والثاني : أنه أبو جهل ، روي عن ابن عباس أيضاً .
والثالث : أبو لهب ، قاله عطاء .
والرابع : عقبة بن أبي معيط ، قاله شمر بن عطية .
والخامس : أنه عنى به جماعة من قريش ، قاله عكرمة .))[1] .

حتى أن أغلب من يورد قصة مدنيتها يورد ذلك أيضاً ، ولو في موضعٍ آخر من تفسيره ، فراجع و انتبه ، وبهذا يستطيع مدّعي تواتر ذلك ، أو على الأقل تظافره من أن نابز الرسول صلى الله عليه وآله كان من أهل

1 تفسير زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي (ت 597 هـ) .

مكة ، ولازم ذلك أن تكون السورة مكية لا مدنية ، حتى وإن ورد أنها مدنية في أصدق كتاب رواية ، فهو إما اشتباه من الراوي ، أو كُذب عليه ، أو يمكن أن يكون اشتباه من الناسخ ، أو يتم توجيه تلك الرواية .

ثانياً : لاحظ حتى الرواية التي تذكر إبراهيم تجد صدق ذلك فيها إذ تقول الرواية (لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى المشركون بعضهم لبعض قالوا بُتر الليلة) ، ولا يمكن أن يحدث هذا في المدينة ، وذلك لأن تواجد المشركين لم يكن ذا قيمة في المدينة أصلاً ، حتى تقول الرواية (مشى المشركون بعضهم لبعض) ، بل تواجدهم كان في مكة المكرمة دون المدينة ، إذ البارز في الأخيرة آنذاك المنافقون وأهل الكتاب .

ولو قال قائل فإنهم مشوا في مكة فهذا لا يمكن لأنه لا وسائط نقل سريعة فكيف انتقل الخبر بهذه السرعة حتى قالوا بُتر الليلة .

ثالثاً : الرواية الأخيرة ترجّح ذلك أيضاً لأنها تقول إنها نزلت مع أختها سورة القدر ، والكل متفق من أن سورة القدر سورة مكية [1].

أي نعكس قول صاحب روح المعاني ، وهو الصحيح ، لأن الكل كما ذكرنا متفق على مكية سورة القدر .

رابعاً : لاحظ الإرتباك الظاهر فيما يورد في التفاسير :

بينما يروون في كتبهم :

(({ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } قال ابن عباس: نزلت هذه السورة في العاص بن وائل ابن هشام بن سعيد بن سهم أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدّثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس، فلما دخل العاص قالوا له: من الذي كنت تحدث؟ قال: ذاك الأبتر، يعني النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من خديجة ، وكانوا يسمّون من ليس له ابن أبتر ، فسمّته قريش عند موت إبنه أبتر وصنبوراً ، فأنزل الله سبحانه { إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } .))[2] .

1 راجع أسباب النزول في كتب التراث .
2 تفسير الكشف والبيان / الثعلبي (ت 427 هـ) .

وإذا بهم بعد أسطر يذكرون :

((فحدّثنا أبو محمد المخلدي قال: أخبرنا أبو العباس الثقفي قال : حدّثنا أبو همام الوليد بن شجاع السكوني وعبد الله بن عمر بن أبان قالا : حدّثنا عبد الرحمن بن سلمان عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال " : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنا إذ أغفى إغفاءة ، أو أغمى عليه ، فرفع رأسه مبتسماً فقال : " هل تدرون ممن ضحكت ؟ " فقالوا الله ورسوله أعلم ، قال : " إنه نزل عليّ سورة " فقرأ { بسم ٱلله الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ *إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } فقرأ حتى ختم السورة ، فلما قرأها قال : " أتدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربّي عز وجلّ ، فيه خير كثير ، لذلك النهر حوض يرد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، [فيختلج] منهم فأقول : ربِّ إنَّه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ." .))[1] .
فكيف يكون كذلك ؟!

ولا تنس من أن أنساً راوي الرواية قد أسلم بعد الهجرة ، فتفكّر فيه جيداً .

إذ قالوا : ((قال عامة أهل التفسير كابن عباس ومقاتل والكلبي : إن العاص بن وائل وجمعاً من صناديد قريش يقولون : إن محمداً أبتر ، لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره ، واسترحنا منه ، وكان قد مات ابنه عبد الله ابن خديجة ، فأنزل الله تعالى هذه السورة كما مر في أول " المائدة ")) [2].

ثم خامساً : لاحظ قول الإمام السيوطي الذي أورد الرواية ((وأخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي أيوب)) فهو سند ضعيف ، لايمكن أن يُعارض ، فضلاً عن أن يُرجح .

مع إن الإشتباه في هكذا موارد ليس بعزيز .

فمن سبب نزولها الذي يكاد يكون متواتراً ، فإن لم يكنه فمستفيضاً ، وإن اختُلِف في اسم الذي تجاسر وبتر وهو لا يهمنا بشئ الآن ، وهذا لا يضعفه قول قائل أو وسوسة نفس ، خاصة مع إمكان التوجيه في كثير منها كما رأيت ، فمن ذلك كله ، ومن لحن خطاب السورة ، وترتيب آياتها ، يتبين أنَّ سورة الكوثر مكية .

1 المصدر السابق .
2 تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان/ القمي النيسابوري (ت 728 هـ) .

فضلاً عمَّن ذكر ذلك ووضحه :

قال الزركشئ في البرهان تحت عنوان (ذكر ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيبه) :[1] (أول مانزل من القرآن بمكة إقرأ بإسم ربك ، ثم ن والقلم ، ثم ياأيها المزمل ، ثم المدثر ، ثم تبت يدا أبي لهب ، ثم إذا الشمس كورت ، ثم سبح اسم ربك الأعلى ، ثم والليل إذا يغشى ، ثم والفجر، ثم والضحى ، ثم ألم نشرح ، ثم والعصر ، ثم والعاديات ، ثم إنا أعطيناك الكوثر ....))[2] .

وختم كلامه بقوله : (فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة ، وعليه استقرت الرواية من الثقات ، وهي خمس وثمانون سورة) [3].

وهو ما ذهب إليه ابن الحصار ، وإن كان يختلف معه في عدد السور ، ونقله عنه السيوطي في الإتقان ، والزرقاني في مناهل العرفان .

ووافق ذلك كثير من المفسرين منهم صاحب تفسير النهر الماد العلامة الأندلسي[4] حيث صرح من أن " هذه السورة مكية " .

وقال صاحب الميزان : و الظاهر أنها مكية .

وهذا هو الظاهر بحسب ما يظهر من تفسير الجلالين لأنهما يقولان من أنها نزلت في العاص بن وائل .

و أيّد هذا كل من سيد قطب والسيد فضل الله ، في الظلال والوحي ، قال السيد :

((وإذا كانت السورة قد نزلت في أجواء الكلمات التي أثارها بعض سفهاء قريش في حديثهم عن النبي بأنه أبتَر لا ذرّية له من الذكور، فقد يكون الحديث عن الخير الكثير إشارةً إلى الذرية الكثيرة التي للنبي محمد(ص) من ابنته فاطمة(ع) ، ليكون ذلك بمثابة الردّ على هؤلاء ، في ما أرادوه من إضعاف معنوية

1 193/1 .
2 وقد ذكرنا كلام الزركشي في البرهان بنصه لأنه ذكر السور المكية والمدنية على ترتيب نزولها بما في ذلك السور المختلف فيها ، وذكر أنه ما استقرت عليه الرواية من الثقات .
3 الزركشي / البرهان / ج1 .
4 (ت 754 هـ) .

النبي بهذه الكلمة ، التي كانت تمثل مدلولاً سلبياً في المجتمع القائم على اعتبار الامتداد في الذرية لوناً من ألوان القيمة الذاتية للإنسان هناك .))[1] .

وقال سيد قطب في أول تفسير هذه السورة المباركة : ((هذه السورة خالصة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كسورة الضحى ، وسورة الشرح .

يسري عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر .

ومن ثم فهي تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية في أول العهد بمكة .

صورة من الكيد والأذى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوة الله التي يبشر بها ؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه .
كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان ، وحقيقة الضلال والشر والكفران..

الأولى كثرة وفيض وامتداد ، والثانية قلة وانحسار وانبتار ، وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك .)) .

ويقول :

((وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعاً .)) .

ومنه يظهر إلى أنهما يميلان لكون هذه السورة مكية .

بل سبحان الله على هذا التناسق العجيب ، والتركيب الغريب ، والتسلسل الذي به تُقام الحجة ، ويُكشف الصبح للمتتبع الألمعي ، والطالب للحقيقة ، وستأتي بقية كلامٍ فانتظر .

1 من وحي القران / السيد فضل الله .

بماذا فسَّر القوم الكوثر ؟!

والمفسرون أوردوا عدة معانٍ للكوثر ، بعد اتفاقهم على أن من معاني الكوثر النهر أو الحوض في الجنة ، حيث قالوا إنه :

1 : الخير الكثير .

2 : نهر في الجنة .

3 : حوض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الجنة أو في المحشر .

وقد وردت عدة روايات في ذلك من الطرفين .

4 : علماء الأمة .

5 : القران ، وما يحويه .

6 : النبوة .

7 : الإسلام .

8 : المقام المحمود .

قال القرطبي في تفسيره :

(و " الْكَوْثَر " : فَوْعَل مِنْ الْكَثْرَة ; مِثْل النَّوْفَل مِنْ النَّفْل , وَالْجَوْهَر مِنْ الْجَهْر .

وَالْعَرَب تُسَمِّي كُلّ شَيْء كَثِير فِي الْعَدَد وَالْقَدْر وَالْخَطَر كَوْثَرًا .) .

(وَالْكَوْثَر مِنْ الرِّجَال : السَّيِّد الْكَثِير الْخَيْر .) .

(وَاخْتَلَفَ أَهْل التَّأْوِيل فِي الْكَوْثَر الَّذِي أُعْطِيَهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سِتَّة عَشَرَ قَوْلا) ونقلها :

الأوَّل : أَنَّهُ نَهَر فِي الْجَنَّة .

الثَّانِي : أَنَّهُ حَوْض النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَوْقِف .) .

ثم علل وقال : (ثُمَّ يَجُوز أَنْ يُسَمَّى ذَلِكَ النَّهَر أَوْ الْحَوْض كَوْثَرًا , لِكَثْرَةِ الْوَارِدَة وَالشَّارِبَة مِنْ أُمَّة مُحَمَّد عَلَيْهِ السَّلام هُنَاكَ . وَيُسَمَّى بِهِ لِمَا فِيهِ مِنْ الْخَيْر الْكَثِير وَالْمَاء الْكَثِير .) . وهذا أي تعليله يمكن أن يكون قولاً آخراً يُضاف إلى أقواله .

وبعدها استطرد وقال : (الثَّالِث : أَنَّ الْكَوْثَر النُّبُوَّة وَالْكِتَاب ; قَالَهُ عِكْرِمَة .

الرَّابِع : الْقُرْآن ; قَالَهُ الْحَسَن .

الْخَامِس : الإِسْلام ; حَكَاهُ الْمُغِيرَة .

السَّادِس : تَيْسِير الْقُرْآن وَتَخْفِيف الشَّرَائِع ; قَالَهُ الْحُسَيْن بْن الْفَضْل .

السَّابِع : هُوَ كَثْرَة الْأَصْحَاب وَالأُمَّة وَالأَشْيَاع ; قَالَهُ أَبُو بَكْر بْن عَيَّاش وَيَمَان بْن رِئَاب .

الثَّامِن : أَنَّهُ الإِيثَار ; قَالَهُ اِبْن كَيْسَان .

التَّاسِع : أَنَّهُ رِفْعَة الذِّكْر . حَكَاهُ الْمَاوَرْدِيّ .

الْعَاشِر : أَنَّهُ نُور فِي قَلْبك دَلَّك عَلَيَّ , وَقَطَعَك عَمَّا سِوَايَ [1] .

وَعَنْهُ [2]: هُوَ الشَّفَاعَة ; وَهُوَ الْحَادِي عَشَرَ .

وَقِيلَ : مُعْجِزَات الرَّبّ هُدِيَ بِهَا أَهْل الإِجَابَة لِدَعْوَتِك ; حَكَاهُ الثَّعْلَبِيّ , وَهُوَ الثَّانِي عَشَرَ .

الثَّالِث عَشَرَ : قَالَ هِلال بْن يَسَاف : هُوَ لا إِلَه إِلا اللَّه مُحَمَّد رَسُول اللَّه .

1 وهو ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بنصه (منا) .
2 أي عن المعصوم عليه السلام (منا) .

وَقِيلَ : الْفِقْه فِي الدِّين .

وَقِيلَ : الصَّلَوَات الْخَمْس ; وَهُمَا الرَّابِع عَشَرَ وَالْخَامِس عَشَرَ .

وَقَالَ اِبْن إِسْحَاق : هُوَ الْعَظِيم مِنْ الْأَمْر ....)) وهو السادس عشر ، ثم رجَّح الأول والثاني [1].

وقال الطبري في تفسيره : ((وَاخْتَلَفَ أَهْل التَّأْوِيل فِي مَعْنَى الْكَوْثَر , فَقَالَ بَعْضهمْ : هُوَ نَهَر فِي الْجَنَّة أَعْطَاهُ اللَّه نَبِيّه مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .)) ونقل عدة روايات في ذلك .

ثم قال بعدها : (وَقَالَ آخَرُونَ : عُنِيَ بِالْكَوْثَرِ : الْخَيْر الْكَثِير .) .

وروى عَنْ عِكْرِمَة , قَالَ : هُوَ النُّبُوَّة , وَالْخَيْر الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّه إِيَّاهُ .) .

ثم روى أيضاً عَنْ عِكْرِمَة فِي قَوْل اللَّه : { إِنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَر } قَالَ : الْخَيْر الْكَثِير , وَالْقُرْآن وَالْحِكْمَة .) .

وروى (عَنْ مُجَاهِد , قَالَ : خَيْر الدُّنْيَا وَالآخِرَة .) .

و (عَنْ بَدْر بْن عُثْمَان , سَمِعَ عِكْرِمَة يَقُول فِي الْكَوْثَر : قَالَ : مَا أُعْطِيَ النَّبِيّ مِنْ الْخَيْر وَالنُّبُوَّة وَالْقُرْآن .) .

و (عَنْ بَدْر , عَنْ عِكْرِمَة , قَوْله : { إِنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَر } قَالَ : الْخَيْر الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّه : النُّبُوَّة وَالإِسْلام .) [2].
وقال (ابن كثير) في نهاية كلامه حول هذه الآية المباركة : (وَقَدْ صَحَّ أَصل هَذَا _ أي كونه نهرا وصفته كذا _ بَلْ قَدْ تَوَاتَرَ مِنْ طُرُق تُفِيد الْقَطْع عِنْد كَثِير مِنْ أَئِمَّة الْحَدِيث ، وَكَذَلِكَ أَحَادِيث الْحَوْض ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَنَس وَأَبِي الْعَالِيَة وَمُجَاهِد وَغَيْر وَاحِد مِنْ السَّلَف أَنَّ الْكَوْثَر نَهَر فِي الْجَنَّة ، وَقَالَ عَطَاء هُوَ حَوْض فِي الْجَنَّة .) .

وجاء في تفسير الجلالين : (الْكَوْثَر " هُوَ نَهْر فِي الْجَنَّة ، هُوَ حَوْضه تَرِد عَلَيْهِ أُمَّته ، وَالْكَوْثَر : الْخَيْر الْكَثِير مِنْ النُّبُوَّة وَالْقُرْآن وَالشَّفَاعَة وَنَحْوهَا .) [3].

1 راجع تفسير القرطبي .
2 أنظر تفسير الطبري في تفسير هذه السورة المبارك .
3 تفسير الجلالين - جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي / 1 / 824 / الناشر : دار الحديث – القاهرة / ط1 .

وقال ابن عباس أيضاً: { الكوثر }: الخير الكثير.
وقال سعيد بن جبير: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه .
وقد نقل عن بعضهم أنه أنهى الأقوال إلى ستة وعشرين .
و إذا دققت النظر تجد أن تفسير الكوثر ما هو إلا قول القائلين جاء على لسانهم ، لا حصر له من المعصوم إلا الحوض والنهر الذي ورد ، ومعنيين آخرين [1]، فاقلب البصر مرتين تجد صدق ما نقول .

و قال صاحب الميزان :
((وكيفما كان فقوله في آخر السورة :« إن شانئك هو الأبتر » وظاهر الأبتر هو المنقطع نسله ، وظاهر الجملة أنها من قبيل قصر القلب - أن كثرة ذريته (صلى الله عليه وآله وسلم) هي المرادة وحدها بالكوثر الذي أعطيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أو المراد بها الخير الكثير وكثرة الذرية مرادة في ضمن الخير الكثير ، ولولا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله : « إن شانئك هو الأبتر » خاليا عن الفائدة .)) .

خاصة وإن الروايات قد استفاضت في أن سبب نزولها هو ما عابه عليه المشركون .

وقد جاء عن أهل بيت العصمة عليهم السلام كذلك :

عن الإمام الصادق عليه السلام الكوثر : هو الشفاعة ، نقل ذلك صاحب مجمع البيان [2] ، وصاحب تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز [3] ، و أورده الفيض الكاشاني في تفسيره [4] .

" فصلّ لربك وانحر "

وقد ذكر صاحب الدر المنثور من جملة ما ذكر من آراء : ((وأخرج ابن جرير ، عن أبي جعفر ، في قوله : " فصل لربك " قال : الصلاة .

" وانحر " قال : يرفع يديه أول ما يكبر في الإفتتاح .

1 أحدهما ذُكر فيما ذكر ، والآخر سنذكره بعد أسطر .
2 الشيخ الطبرسي ت 548
3 ابن عطية (ت 546 هـ
4 الصافي في تفسير كلام الله الوافي / الفيض الكاشاني (ت 1090 هـ) .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : " فصل لربك وانحر " قال : إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر .)) [1].

((والمروي عن ابي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن معناه وانحر البدن والاضاحي .)) أيضاً [2].

ولذا قال صاحب البيان :((والمراد بالنحر : النحر بمنى ، أو نحر الاضحية في الاضحى ، أو رفع اليدين إلى النحر في تكبير الصلاة ، أو استقبال القبلة بالنحر ، والاعتدال في القيام ، وجميع ذلك يناسب المقام لانه نحو من الشكر لتلك النعم .)) [3].

فعن أمير المؤمنين عليه السلام : لمّا نزلت هذه السورة قال النبيّ صلّى الله عليه وآله لجبرئيل ما هذه النّحيرة الّتي امرني بها ربّي ؟ قال ليست بنحيرة ، ولكنّه يأمرك اذا تحرّمت للصّلاة أن ترفع يديك إذا كبّرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت ، فانّه صلاتنا وصلاة الملائكة في السموات السبع ، فإنّ لكلّ شيء زينة وإنّ زينة الصلاة رفع الايدي عند كلّ تكبيرة [4].

" إن شانئك هو الأبتر "

قَالَ أَهْل اللُّغَة : الأَبْتَر مِنْ الرِّجَال : الَّذِي لا وَلَد لَهُ , وَمِنْ الدَّوَابّ الَّذِي لا ذَنْب لَهُ .

وَكُلّ أَمْر اِنْقَطَعَ مِنْ الْخَيْر أَثَره , فَهُوَ أَبْتَر .

وَالْبَتْر : الْقَطْع . بَتَرْت الشَّيْء بَتْرًا : قَطَعْته قَبْل الإِتْمَام .

وَالإِنْبِتَار : الإِنْقِطَاع ؛ وَالْبَاتِر : السَّيْف الْقَاطِع .

وَالأَبْتَر : الْمَقْطُوع الذَّنَب . تَقُول مِنْهُ : بُتِرَ [بِالْكَسْرِ] يُبْتَر بَتْرًا [5].

ولذا قالوا : ((والشنئ البغض ، والشانىء المبغض .

1 الدر المنثور / السيوطي / 8 / 653 / عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي / الناشر : دار الفكر - بيروت ، 1993 .
2 تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن / الطوسي (ت 460 هـ) .
3 البيان / ص 99 / السيد الخوئي .
4 الخصال .
5 راجع كتب اللغة .

والبتر في اللغة استئصال القطع ، ومنه الأبتر المقطوع الذنب ، فاستعير للذي لا عقب له ، ولمن انقطع خبره وذكره ، فبيَّن الله تعالى بهذه الصيغة المفيدة للحصر أن أولئك الكفرة هم الذين ينقطع نسلهم وذكرهم ، وأن نسل محمد صلى الله عليه وسلم ثابت باق إلى يوم القيامة كما أخبر بقوله .) .[1]

((" إِنَّ شَانِئُك " أَيْ مُبْغِضك " هُوَ الأَبْتَر " ، الْمُنْقَطِع عَنْ كُلّ خَيْر ، أَوْ الْمُنْقَطِع الْعَقِب .)) [2].

1 تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان / القمي النيسابوري (ت 728 هـ) .
2 تفسير الجلالين .

المرحلة الثالثة من التفسير :

قال تعالى : { قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا } [1]

فاستمعت الجن والإنس له فذهلوا ، وزادهم عجباً ، فمع وضوح عبارته ، لم يُدركوا سره ، فهاهو كلام عربي مبين ، بتراكيب سهلة ، مع وضوح في العبارة وصدقٍ بالتعبير ، خالٍ من التعقيد .

يأخذ بألباب السامعين ، فسدوا آذانهم لئلا يسحرهم بيانه إذا استمعوا له .

فيا لله ولكلماته .

يفتح للأديب ألف باب إلا إنه يعجز عن مجاراته ، وليس له غبار حتى يلحق بغباره ، فأقصى ما قال قائلهم :

(والله إنّ لـهُ لَحلاوة ، وإنّ عليهِ لَطلاوة ، وإنّ أسْفلَـهُ لَمُغْدِق ، وإنّ أعلاه لَمورق ، وإنه يُعلى ولا يُعلى عليه .) .

وبعد أن عجزوا عن الإتيان بمثله خفّف عليهم ، فقال تعالى : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ } [2]

ثم لمّا أرهقهم ذلك ، ولم يستطيعوا له سبيلا ، قال لهم بواضح العبارة :

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [3]

لِتبقى هذه السورة تتحدى أيَّ مشكك في دين الله ومعجزته القران العظيم .

فكتاب الله يقول : ((فأتوا بسورة من مثله ....)) ، وهذه السورة هي أصغر سور القران ، فهي الطريق الأسهل لأي متحدٍ يفكر في تحديه .

وهاهيَ تتحدى – وتبقى -- ببلاغتها ودلالاتها ، وبيانها وبيناتها أيّ طاغ وباغ في الأرض يُنكر هذا الإعجاز العظيم .

1 (الإسراء: 88) .
2 (هود: 13)
3 (يونس: 38)

نحن والسورة :

لا يخفى على أحد حُسْن الإستهلال في هذه السورة المباركة ، فإنّ أول مقطع بها دلّ على أنه قد أعطاه كثيراً من الخير ، ويظهر أنه لا حدود له .

فلنتدبر إكثر في سورة الكوثر :

أولاً إذا لاحظنا الآية المباركة لرأينا فيها :

" إنـّا "

إبتداءاً بالضمير .

وتوكيداً ب (إنّ) .

والإبتداء بالضمير ــ وخاصة ضمير المتكلم ، والمتكلم هو الذي ينبئ عمّا يُريد ، فيتم إبراز المعنى بأعلى مراتبه ، خاصة إذا كان حكيماً عليماً ــ يعني زيادة اهتمام بما سيأتي وبما سيخبر ، وليس هذا فحسب ، بل يبدأ الجملة بضمير الجمع ، المنبئ عن العظمة (إنّا) ، هذا أولاً وثانياً .

ثالثاً : تقديماً للضمير : وتقديم الضمير بنفسه يعني الإختصاص والإهتمام .

وهما من أهم أغراض التقديم ..

فهذا يعني وجود زيادة اعتناء منه تعالى بما سيذكر .

وهذا يُفهم مما يحيط بالكلام من قرائن .

ولذا بنيت هذه الآية المباركة من :

1 : إنّ .

2 : ضمير العظمة (نا) .

وقد قُدِّم ضمير الجمع الذي يدل على العظمة ، وزيادة على التقديم أُكِد ب (إنَّ) .

فهنا تأكيدان : التقديم ، والتأكيد بإنَّ .

والتقديم بنفسه يدل على : الاهتمام والاختصاص ، كما قلنا .

فعندما نقول نحن فعلنا هذا الشئ ، فمعناه نحن فعلناه لا غيرنا .

وهذا يعني الإختصاص .

وأيضاً التقديم يفيد الإهتمام بالشئ .

قال تعالى : " أنه خلق الزوجين "

وقال تعالى : " ونوحاً هدينا من قبل "

وقال تعالى : " ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان "

فللإهتمام بالخلق قدم الضمير ، وللإهتمام بنوح قدم ذِكره ، وللإهتمام بالمنادي والنداء قدم الضمير المؤكد .

فعند قولك :

جاء زيد إلى الحفلة ، تريد بيان الإهتمام بزيد ومجيئه ، وإلا فكثيرون من يأتون ، ولكن عند قولك : زيد جاء إلى الحفلة تريد توكيد مجيئه ، وإظهار نوع من الإهتمام بمجيئه .

وهكذا إذا كان المتقدم ضمير المتكلم فتقول : أنا أتيت إلى الحفلة ، إظهار الضمير هنا لأجل بيان الإهتمام .

ولو قلت فعلتُ هذا يوم أمس مثلاً ، لكان بياناً لفعلك ، ولكن لو قلت أنا فعلت هذا فهو يفيد الإهتمام ، أو الإختصاص أو كليهما وهو يتحدد بالقرائن المكتنفة بالكلام والمقام .

فإذاً هناك : إهتمام بالخبر .

واختصاص .

إنـّا : ضمير التعظيم ومؤكد .

أعطيناك : فهنا إختصاص من أن هذه العطية من الله ، وهي اهتمام بالعطية والمُعطى .

ومن هنا تبين لنا أن هذه العطية لا بد أن تكون عظيمة ، وخاصة إنه أتى بضمير الجمع وهو الواحد الأحد ليدل على العظمة .

وحصر العطية له بضمير المخاطب المفرد ، للدلالة على الإهتمام به .

وجاء بالضمير المؤكد أولاً ثم بعدها أسند الفعل إلى الاسم ليؤكد الإسناد مرتين .

فهنا خمسة أمور تصلح أن تكون مؤكدة ، أي هذا الإعطاء أكد خمس مرات .

ثم بالإضافة لكل ذلك جاء بصيغة الماضي ليدل على التحقق .

فهو توكيد للإعطاء ، بأعلى مراتبه ، لاهتمام الباري عز وجل به .

وهو إعطاء خاص من الله تعالى ، وليس كما قالوا من أنه خاص للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ هذا لا يُفهم من هذا ، ويُفهم من الضمير الذي خاطبه به الباري عز وجل وهو ضمير الخطاب ب (أعطيناك) .

و ((قال: { أَعْطَيْنَـاكَ } ولم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال:{ أَعْطَيْنَاكَ } علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلاً بل هي

محض الاختيار والمشيئة ، كما قال: " نَحْنُ قَسَمْنَا " [1]

" ٱللَّهِ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ " [2])) . [3]

وصحيح هي محض الاختيار والمشيئة إلا أنه لو لم يكن شخصه أهلاً لها لما أعطيها ، فهيَ له شخصياً من دون ألقاب أو إضافات ، إذ هو بنفسه أهل لها ، و إن كانت خيراً لا حدود له .

كما إنه زيادة اعتناء به ، ليلتصق الإعطاء به مباشرة حتى بالكلام ، بلا فاصل ولو بالنفس .

وقالوا بأن العطاء هو تمليك .

والكوثر بمعنى الخير الكثير ، وبتعبير آخر هو الشئ الذي هو خير ، وليس هذا فحسب بل هو الخير الذي من شأنه الكثرة .

وهو من صفات المبالغة ، إذ أن زنة (فوعل) تدل على المبالغة .

وهي قابلة لأن تدل على ذات أو صفة .

كما أنها لا تكون إلا بالخير ، فهي محصورة فيه .

ومن هنا نعلم لماذا لم يستعمل الباري عز وجل كلمة (الكثير) بدلاً من الكوثر .

وبعد أن أعطاه الكوثر ، أمره بالصلاة والنحر ، فما دخل هذا بهذا ؟!

أعطيناك

وقد استعمل هنا أعطيناك ، مع إنه قد استعمل آتيناك في غيرها :

قال تعالى (إنا آتيناك سبعاً من المثاني والقران العظيم)

ولو لاحظنا بأن (آتى) أوسع من حيث المعنى لتعجبنا ، وقلنا لِمَ لمْ يستعملها هنا مع إنه قد قال في شبيه المورد : (وآتيناهم ملكاً عظيماً) ، والمقصودون هم آل إبراهيم كما هو واضح ، ومحمد و آله منهم صلى الله على محمد و آل محمد ؟!

وقال تعالى : (وآتينا إبراهيم رشده)

1 الزخرف:32 .
2 الحج:75
3 الفائدة الثامنة : / تفسير سورة الكوثر/ التفسير الكبير / الفخر الرازي .

و قال تعالى : (يؤتي الحكمة من يشاء)

و قال تعالى : (ولقد آتينا موسى تسع آيات)

ولكن عند التمعن تظهر لنا بعض أسرار ذلك إذ لو استقرأنا استعمالات (آتى) لرأينا أنها تستعمل في الأمور المادية والمعنوية .

فالرشد والحكمة من الأمور المعنوية .

ولكن عندما يصل إلى الأمر المادي :

يقول تعالى : (وأعطى قليلاً وأكدى)

و يقول عزّ من قائل : (فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى)

ولعله لِما تبين أن (أعطى) لا تستعمل إلا في الأمور المادية فقط ، ظهر منها أنها تفيد التمليك ، بينما تلك لا تفيده .

قال تعالى :(هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب) .

فانظر فبعد العطاء أصبح له التصرف المطلق ، فناسب ذلك أن يقول له (فامنن أو أمسك بغير حساب) .

بينما الإيتاء يحتمل فيه النزع ((قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء.....)) [1]

ولو دققنا في بعض ما ورد في القران لرأينا أن الإيتاء يمكن سلبه ممن أوتيه :

قال تعالى :

((واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)) [2].

1 آل عمران 26 .
2 الأعراف 175 .

وربما لايكون منه مباشرة ، بل هو يستطيع أن يأتي به إليه ، وبنفس الوقت قد لا يمكنه أن يجعل له سلطاناً عليه ((أنا آتيك به ..)) .

وأصلاً الإيتاء يأتي بمعنى الإحضار ، بينما الإعطاء بمعنى المناولة .

بل العطاء يدل على سهولة المناولة ، كما يدل على القرب .

و أما الهبة : فيحتمل فيها أنها صدرت بعد سؤال واحتياج : ((رب هب لي ملكاً ...))

وبعد أن قال موسى ((واجعل لي وزيرا من أهلي)) ، قال تعالى ((ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً))

ونقول : ((ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا)) ، ويقول تعالى ((يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور))

فهنا العطاء يتبين أنه تم من الله تعالى ، خصّه به كرامة .

وأما الهدية فلربما لا تكون من حاجة إليها عند من تُهدى إليه ، ولذا يصح أن يُهدى للملوك و أمثالهم .

قال تعالى عن لسان بلقيس :

((وإني مرسلة إليم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون)) .

وهنا لها احتياج عظيم لأن كمال الدين بها [1].

فلذا عبر ب ((أعطيناك)) ، ولم يعبِّر بغيرها .

ومن هنا للإختصاص التمليكي استعمل هذا الفعل ولم يستعمل غيره .

((فالاعطاء إخراج الشيء إلى آخذ له، وهو على وجهين : اعطاء تمليك ، واعطاء غير تمليك ؛ فاعطاء الكوثر إعطاء تمليك ، كإعطاء الاجر، وأصله التناول من عطا يعطوا إذا تناول .)) [1].

1 وسيأتيك بيانه .

لذا صح أن نقول :

أولاً : هي عطية عظيمة لا يمكن للبيان أن يصفها ، إلا بما وصفها الباري عزّ وجلّ .

ثانياً : إنها من خصوصيات رسول الله صلى الله عليه وآله .

ثالثاً : إنها تدل على قرب الرسول الكريم من الله تعالى .

رابعاً : مترتب على هذه الخصوصية إقامة الصلاة بزينتها التامة ، أو إقامة الدين كله القولي منه والعملي .

خامساً : وهذا الإعطاء يظهر منه أنّ شانئ الرسول صلى الله عليه وآله هو المقطوع الذكر .

فإذاً هو أمر مرتبط بنفس رسوله الكريم وبالدين الذي جاء به .

والتفتَ إلى ذلك الفخر الرازي حيث قال : ((وثانيها: أنه تعالى لما قال: { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة)) ، لكنه لم يصب حين قال بعدها مباشرة : ((وان خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة)) ، والعجيب أنه قال بعدها وكأنه رد على كلامه :

((والخلف في كلام الله تعالى محال ...)) .

وأجاب فقال : ((فوجب في حكمة الله تعالى إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرهم بل يصير أمره كل يوم في الازدياد والقوة)) [2].

وكلامه كما ترى ليس وافياً ، إذ لم يكن واقعاً موقعه بصورة دقيقة .

وثم جاء بقوله الآخر فزاد الإرتباك ، حين قال : ((وثالثها : أنه عليه السلام لما كفروا وزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا : إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس،

1 التبيان الجامع لعلوم القران / الطوسي ت 460 .
2 تفسير مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير/ الرازي (ت 606 هـ)

وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا ، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا ، فقال الله تعالى :{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } أي لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر لما لهم ومراعاتهم .)) . تفسير مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير/ الرازي .

وهو قد رد على قوله في (ثانيها) ((وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة)) ، فهو قد رد على نفسه بنفسه بعد أسطر .

لذا نرى أن توجيهه هذا من التوجيهات البعيدة .

ولو اختصر المسافات لكان أولى له .

ولكنه لم يلتفت للقريب وراح إلى البعيد .

فالقول كما قال : ((والخلف في كلام الله تعالى محال ...)) ، فعليه علينا أن نركز قليلاً ، لِنجدَ الكوثر ، في بيته صلى الله عليه و آله ، حتى لا يلزم الخلف .

ولو كان الكوثر المُعطى مُوجوداً فعلاً ، وبما أنه كوثر فهو يفيض بالعطاء .

يفيض بالعطاء الآن وفي المستقبل ، وهو أقرب معنى للكوثر ، إذ معناه على ما قال : ((وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة)) فراجع قوله ، ونحن نضيف وخيرات الآخرة لم تكن واصلة لأنه لا زال في الدنيا فأي كوثر هذا ؟ ،

لذا نقول بأن ما ذهبنا إليه هو المتعين لا ما قاله الرازي أو غيره من المفسرين من علماء العامة ، أو ممن تأثر بهم من حيث يدري أو لا يدري من علماء الخاصة ، وإن كان بعضهم قد حام حول الموضوع ولكن لم يلجه لتشويش الصورة من هذه الأقلام ، والذهن ربما كان مركزاً على مواضيع أخر ، ولذا ضاع الأمر ، لا ضيّع الله تعالى جهودهم .

وقال : ((ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيالها من نعمة ما أعظمها ! وما أجلها ! وياله من تشريف ما أعلاه !)) [1].

ويقصد عظم الواهب و " الموهوب له " ، و الموهوب ، لا " الموهوب منه " لأنه لا معنى له ، وأعتقد أن هذا من سهو القلم .

يقول صاحب لسان العرب : ((وهَب لهُ مالاً يهَب وَهْبًا ووَهَبًا وهِبَةً أعطاهُ إياهُ بلا عوض . فهو واهب ووَهَّاب ووَهَّابَة ووَهُوب ، وذاك موهوب لهُ ، والمال موهوبٌ ، والاسم الموْهِب والمَوْهِبَة.))[2] .

وهذا لا يتناسب مع ما ذكروه ويذكرونه ، وإن كان كل ذلك من الخير الكثير ، ونحن نسأل ما هو الخير الكثير الذي كل هذا الذي يذكرونه من جملته ؟!

الإسلام من جملته ، والنهر الذي هو في الجنة من جملته ..... وهكذا .

كل ذلك من جملته .

فما هو يا تُرى ؟

لِنَتدبّر قليلاً في السورة عسى أن يرشدنا ربنا لأقرب من هذا بياناً وهدى .

يعني علينا أن نبحث عن شئ عظيم في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مرتبط به من حيث الوجود أي هو نسله ومنه ، ومرتبط بنفس الوقت بالرسالة الخالدة التي جاء بها .

ومن هنا نقول إن هذا هو المتعين ، لدلالة سبب النزول ، وارتباط الأمر بالذرية ، ووجود الزهراء البتول عليها السلام .

1 التفسير الكبير / الفخر الرازي ت 606هج. / (ج 32 / نهاية الفائدة الثانية في شرح هذه السورة المباركة .
2 راجع لسان العرب .

الكوثر

نقول عوداً على بدء :

الكوثر فوعل من الكثرة ، وهو (الشيء الذي من شأنه الكثرة) [1] ، و الكوثر الخير الكثير .

فهي تدل على عطاء كبير وجليل :

أولاً : قالوا : من أن الموصوف بالكوثر وقد حذف ؛ فسيكون هناك إبهام ، فيكون المعنى فيه أوسع مما لو ثبت .

بل يتم ذلك من الصيغة للكثرة التي وصفت العطاء ، ولم يحذف الموصوف مع إبقاء الصفة لتكون المبالغة ، لأن المثبت الموصوف إذا أثبته ليس فيه على ظاهره ما في محذوفه من سعة واتساع لأي مصداق يمكن أن ينطبق عليه ، لذا أتى بما يناسب الصفة والموصوف المدموجين معاً ، ليدل على الكثرة بنفس ذاك الشئ المُعطى ، وليبين أن الكثرة ليست بصفة طارئة عليه يُمكن أن تنفصل منه .

وإن كان هذا مراد من قال ((وحذف موصوف الكوثر ليكون أبلغ في العموم)) [2] فهو ، وإلا فقوله ليس بتام لِما ذكرنا .

ثانياً : ثم أدخل الألف و اللام على هذه اللفظة التي هي صفة وموصوف ، و التي هي بنفسها دالة على الإستغراق ثم أدخل الألف و اللام عليها ليدل على العموم والشمول التام ، بل التعيين الشامل لكل ذلك على رأينا في تفسير هذه الكلمة المباركة على ما سيظهر لك ، وهو من عجائب الإستعمال .

ثالثاً : إنه أتى بضمير الجمع للمتكلم ، للإشعار بعظم عطيته ، فهو الله ، وهو الذي يُخبر عن نفسه مباشرةً ، و قد أتى بضمير جمع ليدل على أنه ليس أمراً هيّناً ولا مُتعارفاً بل هو أمر عظيم جداً يتناسب مع ضمير العظمة الذي يتصدر الآية الكريمة .

رابعاً : أكد هذا المعنى كله بحرف التوكيد ، لأمرين :

لتوكيده أولاً ، وبما أن التوكيد مجرى القسم كما يقولون فمنه يظهر أنه أراد به تشديد التوكيد ثانياً .

خامساً : إنه استعمل الجملة الإسمية ، ومن خصائص الجملة الاسمية أنها تفيد الدوام والثبوت ، فإنها تثبت الحالة وتجعلها مسنودة لمن ابتدأت به .

فهيَ من هذه الجهة لها دلالتان :

الأولى : بيان أن هذا الإعطاء ثابت ومستقر .

---

1 تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن/ الطوسي (ت 460 هـ)

2 تقي الدين ابن تيمية / مجموع فتاوى ابن تيمية / ج16 / ص530 / مجمع الملك فهد / النشر 1995

والثانية : إنه من قِبَل الله المُخبَر عنه بضمير المتكلم وهو أثبت للحالة ، ولقد جاء بصيغة الجمع وهو أشد تثبيتاً لها وتركيزاً مع بيان عظمتها .

سادساً : ثم جعل خبره الجملة الفعلية ليدل على الإسناد مرتين ، وهو تأكيد آخر ، فسبحان الله .

سابعاً : أتى بالخبر فعلاً ليدل على الإنجاز ، وأتى به فعلاً ماضياً ليدل على التحقق .

ثامناً : أتى بضمير المخاطب ، ليدل على الإعتناء بالمخاطب والإهتمام به .

تاسعاً : وأخيراً لا آخراً جاء بلفظ الإعطاء الذي يدل على التمليك ، وفيه نكتة سنشير إليها لاحقاً .

فإذاً هي عطية عظيمة من أعظم العظماء ، ترتب عليها أن يعبد الله ويقيم الصلاة كما أمر .

فهل يمكن أن نقبل على أنها نهر في الجنة فقط ، أو هي ما قالوا من أقوال...أو هي الزهراء عليها السلام ونسكت .

ولم يرض هذا حتى السابقون فقد ورد عنهم أنهم جعلوه أكثر من عشرين معنىً جزماً وحتماً .

من هنا علينا أن نتدبر ونتدبر لنسخرج بعض درر ذلك الكوثر .

" فصلِّ لربك وانحر "

ثم بيان عظمة هذا المُعطى بحيث أن العبادة تترتب عليه ، فقد جاء بفاء التعقيب الدالة على التسبيب .

((قال ابن العربي : " أما من قال : إن المراد بقوله تعالى : { فَصَلِّ } الصلوات الخمس ، فلأنها رُكْن العبادات ، وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين.....)) [1].

فإذاً عمود الدين التي هي الصلاة تكون به قائمة .

فما هو يا تُرى ؟!

غير ما تحمل هذه الآية المباركة من مفهوم يُعَرِّض بمن كانت صلاته لغير الله تعالى.

وقد حذف متعلق " انْحَرْ " لثلاث نكات :

1 : لأنه داخل في الصلاة على تفسيره برفع اليدين إلى شحمتي الأذنين عند التكبير ،

2 : أو لأنه أوسع من الأمر العبادي الخالص كما في الصلاة على حمله على تذكية الإبل، وذلك لأن الصلاة محصورة ولا تؤدى إلا له ، ولكن النحر يمكن أن يكون ضمن الأعمال الواجبة في مكة المكرمة ، ويمكن أن ينحر لأضيافه أو ليطعم الفقراء والمساكين .

3 : كما لا يخفى حسن ما روعي من السجع البديع العاري من الكلفة والتصنع ، وهو من بدائع صناعة البديع في علم البلاغة .

---

1 تفسير اللباب في علوم الكتاب/ ابن عادل (ت 880 هـ) .

كما قال تعالى : { لِرَبِّكَ } : لمزيد الإعتناء به ، لبيان أنه عبد له ، و الإقرار به منه سبحانه ، وهو ما يكشف عظمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم اختيار صفة الربوبية دون غيرها من الصفات لبيان أن الله هو المربي له ، فما أعظمه !

ولم يأت بضمير العظمة لِدفع الشرك ، وإثبات الوحدانية .

ثم مع هذا الإلتفات البديع من المتكلم إلى الغائب ، لم يستعمل الضمير المفرد ولم يقل " لي " لأنه لو قال لوقع إيهام من أن الصلاة تكون للمعطي ، وهي لا تكون إلا لرب العالمين الذين صفوتهم هذا المخاطب ، فكان أهلاً لخطابه بهذا ، وتمثيله للعالمين جميعاً .

قال تعالى : " إن شانئك هو الأبتر "

وقد جاء هنا بـ " إنَّ " لأنها تفيد تأكيد الخبر ، وتصلح كذلك لتقدير القسم ، وكأنه أقسم على هذا .

ولم يسم الشانئ ليشمل كلَّ من اتصف أو سيتصف بهذه الصفة القبيحة ، فضلا من أنها تفيد حصره به ، فبسبب شنئه له ستكون هذه صفته .

وقد أتى بضمير يمكن أن يكون ضمير فصل فيكون مؤذناً بالاختصاص ، وهو يفيد التأكيد كذلك وذلك لأن الإسناد سيكون مرتين . ، ويمكن أن يكون ضمير وصل فيكون مؤكدا .

وقد جاء بالأبتر : لأن " الأبتر " صفة مشبهة ، وهي على زنة " أفعل " ، وهذا الوزن يفيد الثبوت والإستمرار : مثل الأبيض والأسود ، والأعرج ، والأعمى .

ومنه نعرف لماذا لم يستعمل الباري عز وجل كلمة " المبتور " ، وذلك لما ذُكِر ، ولأن هذه الكلمة على زنة فعول ، وهذه الصيغة تدل على الحدوث فترة ثم المفارقة : مثل مهموم ومحزون ومسرور .

وربما كلمة " المبتور " تفيد أن هناك مَن بتره ، والله يريد أن يبين أن الشانئ هو بنفسه راكس في هذه الصفة.

ولذا أدخل الألف واللام عليها فقال الأبتر ، ليفيد أن هذه الصفة هي صفته ، وهي كاملة فيه ، تصلح لأن يُسمى بها .

وقد ورد عن تفسير علي بن ابراهيم القمي [1]: ((أن الأبتر يعني : لا دين له ، ولا نسب .)) .

و انظر وتأمل المطابقة البديعة بين أول السورة وآخرها ، أي بين " ٱلْكَوْثَر " و " ٱلأَبْتَر " .

بين االخير الكثير وبين الإنقطاع التام عن كل خير .

1 (ت القرن 4 هـ).

المرحلة الرابعة من التفسير

فصل في الشكر :

قال جُلُّ المفسرين إن لم يكن كلهم صريحاً وتلميحاً من إنه أمرَهُ شكراً لعطائه ، ليكون من الشاكرين .

قالوا بأن الإتيان بالفاء بعد ذلك له دلالته الخاصة ف ((ظاهر السياق في تفريع الأمر بالصلاة والنحر على الامتنان في قوله: « إنا أعطيناك الكوثر » إنه من شكر النعمة .
والمعنى إذ مننا عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة والنحر .)) [1].

و قال الطبري في تفسيره لترجيح القول القائل بأن الصلاة تشمل كل صلاة ولا تختص بصلاة معينة ، ولا لنحر معين :
((وإنما قلت : ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك لأن الله جلّ ثناؤه أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بما أكرمه به من عطيته وكرامته ، وإنعامه عليه بالكوثر ، ثم أتبع ذلك قوله : { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } ، فكان معلوماً بذلك أنه خصه بالصلاة له ، والنحر على الشكر له ، على ما أعلمه من النعمة التي أنعمها عليه ، بإعطائه إياه الكوثَر ، فلم يكن لخصوص بعض الصلاة بذلك دون بعض ، وبعض النحر دون بعض وجهٌ ، إذ كان حثاً على الشكر على النِّعم .)) [2].

فترى أنه بيَّن بقوله هذا أن الصلاة والنحر جاءا في مقام الشكر .

وقال الفيروز آبادي صاحب التنوير : ((فصلِّ لربك) شكرا لذلك.)) .

وقال البيضاوي ((فصل لربك فدم على الصلاة خالصا لوجه الله تعالى خلاف الساهي عنها المرائي فيها ، شكرا لانعامه فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر .)) [3].

---

1 الميزان / السيد الطباطبائي .
2 تفسير جامع البيان في تفسير القرآن/ سورة الكوثر / الطبري (ت 310 هـ) .
3 البيضاوي / ج5 / ص 536 .

و أنظر كذلك : بيان السيد الخوئي [1]، أو ظلال سيد قطب ، ووحي فضل الله ، والتفسير الكبير ، ماراً بابن كثير ، إلى غرائب النيسابوري فصحيح البخاري ، وصولاً لكشاف الزمخشري فالطبرسي والقرطبي ، وغيرهم وغيرها من تفاسير الشيعة والسنة ، قديمها وحديثها تجدهم كلهم داروا هذا المدار ، وركزوا على هذا الأمر .

وهو أي الشكر وإن كان يكشف عن عظمة المُعطى ، ولكن في هذا تأمل ، يأتي من جهات عدّة :

أولها : أن الشانئ إذا بُتر مع ما أعطاه الله فيحتاج ذلك إلى تقديم الشكر ، لا أن الإعطاء بنفسه فقط يكون سبباً لذلك ، فكان الأولى أن يذكر ذلك مع الإعطاء ويصوغه بصياغة قرانية إعجازية ثم يأمره بالصلاة والنحر .

إذاً فهو أمر أعم من الشكر ، و أدق .

أي لو كان شكرا لله محضاً لكان الأولى أن يأتي بعد إعطائه وبتر شانئه ، لا بعد العطية فقط ، أو على الأقل بعد إخباره ببتر شانئه .

ثانيها : كما أنه تعالى قال (إعملوا آل داود شكرا) [2] فالعمل هو الشكر ، فالصلاة عمل ، والنحر كذلك ، وهذا ما قصده بعضهم بل صرَّح به .

وشكر المنعم هناك يتم بكل عمل يقوم به آل داود وليس مختصاً بعمل دون عمل ،

فلماذا خُصّ الشكر بالصلاة والنحر هنا ، مع ان محمداً أعظم من نبي الله داود ، وعطيته أعظم ؟!

والجواب من أن الصلاة أعظم من كل عمل ، ولذا ركِّز عليها ، ليس جواباً لهذا السؤال ، لأنه هناك كما نرى صُرِّح بالشكر ، أما هنا نحن جعلنا المقام مقام شكر ثم قلنا أن الصلاة تمثل الشكر ، ونحن نقول إنه أول الحديث أن يكون ذلك ، وسيأتيك لماذا ؟.

ثالثها : كما أن الإعطاء بنفسه يُشعر بالتمليك ، بل هو هو من هذه الجهة ، فلماذا يأمره بهذا ؟!

1 ص 99 .
2 13 / سورة سبأ

بينما نراه بعطيته لنبي الله سليمان على نبينا وآله وعليه السلام يقول له ((هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب)) ، ثم يردفه بقوله : ((وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)) [1]؟

رابعها : كما أنه لا يحسن من المعطي المنعم أن يأمر بالشكر مباشرة بعد عطائه .

وخاصة لِمثل مَن كان على خلق عظيم كما أخبر هو عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال له " و إنك لَعلى خُلُقٍ عظيم " [2] ، فانتبه .

خامسها : نراه عندما عدّد عليه النعم في سورة أخرى قال له : ((فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر و أما بنعمة ربك فحدِّث)) .

وإن كان الحديث بالنعم و إظهارها هو بنفسه من شكر النعم .

سادسها : و إذا قلنا كما قال الدكتور فاضل السامرائي في مقام بيان لِمَ قال الله سبحانه " فصل لربك " ولم يقل فصلِّ لي ، أو لنا ((الصلاة تكون للرب وليس للمعطي ، فإذا قال فصل لنا ، أو لي لأفاد أن الصلاة تكون للمعطي ، ولكنّ الصحيح أن المعطي له الشكر فقط ، وليس الصلاة ، حتى لا يتوهم أن الصلاة تكون لأي معطٍ ، والصلاة حق لله وحده ، إنما المعطي له الشكر فقط .)) [3].

فإذا كان المقام مقام عطية ، وشكر على عطية ، فلماذا الصلاة ؟

ولو قيل من أن الصلاة نوع من الشكر ، قلنا لا نرفض هذا أبدا ، ولكن نقول من أن الصلاة لها مفهوم الخضوع والذل والعبودية المطلقة لله ، ولا يحسن أن تأتي في مقام الشكر الخالص الآن ، لو كان المقام مقام شكر محض ، كما صرّحوا بذلك ، فتأمل فيه جيدا .

و أخيراً : هاك وانظر في بعض مَن التفت ، ولكنه ابتعد فلم يصب الأمر .

1 39 ، 40 / سورة ص
2 4 / القلم
3 في برنامجه الأسبوعي " لمسات بيانية " من قناة الإمارات العربية المتحدة الفضائية .

فبعد أن ذكر صاحب (تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان) القمي النيسابوري الأقوال في الصلاة عند تفسيره لقوله تعالى ((فصل لربك وانحر)) (إن في الصلاة أقوال : فعن مجاهد وعكرمة معناه اشكر لربك ، وفائدة الفاء أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي) .

أشكل على قولهما ، بعد أن عدد الأقوال ب (لأن حمله على الشكر يوهم أنه ما كان شاكراً قبل ذلك ، لكنه كان من أول أمره مطيعاً لربه شاكراً لنعمه .) .

وقال : (وقيل : هي الدعاء كأنه قال : قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك بالكوثر فكيف بعد سؤالك ؟ فسل تعط ، واشفع تشفع ، وذلك أنه أبداً كان في همِّ أمته .) .

ولم يرجحه لأنه مال إلى القول ب (أنها الصلاة ذات الهيئات والأركان لأنها مشتملة على الدعاء والشكر وعلى سائر المعاني المنبئة عن التواضع والخدمة .) [1]، كما إنه قد صدّر غير ما رجح بالقيل .

وما أشكل به على قول مجاهد وعكرمة نوسع دائرته ليرد الإشكال على كل المفسرين ، وهو من ضمنهم إذ مال لرأيهم . لأن جل المفسرين إن لم يكن كلهم قد مال إلى القول من أنه أمره بالصلاة شكراً له ولعطيته [2] .

فإن لم تكن الصلاة معناها الشكر عندهم ، فكلهم مال إلى أنه أمر بإقامتها شكرا له ولِما أعطاه ، وهو بما اختار وبما شرح قد ضمّنه إيّاها ، فلا فرق .

فيرد عليهم ما مر عليك الآن .

من هنا يجب التأمل فيما ذكروه .

كما إنهم يذكرون أنه أعطاه كذا وكذا ، ويعددون حتى أنهى بعضهم الأقوال إلى ستة وعشرين قولاً .

وكل هذا ممكن في حد ذاته .

ولكن بالتأمل من زاوية دقيقة نرى أن أغلبها لا يصح من هذه الزاوية المذكورة ، فلابد أن يكون لها معنى آخر أدق لتصح . لأن منها ما لا يصح إلا من باب المجاز مثلاً ، أو المصداق فقط وحتى اللفظ فضلاً عن المعنى الذي هو أوسع . أو يصح من باب الجري أو من أبواب أُخر .

لذا قال ابن عربي بعد أن عدد آراء القوم في معنى الصلاة والنحر :

((والذي عندي أنه أراد : اعبد ربك وانحر له , ولا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر , وبالحري أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصيصة من الكوثر , وهو الخير الكثير الذي أعطاك الله إياه , أو النهر الذي طينته

1 تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان) / القمي النيسابوري ، ت 728 هـ .
2 أنظر التفسير الشيعي منه والسني ، كما قدمنا .

مسك , وعدد آنيته عدد نجوم السماء ؛ أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة فذلك بعيد في التقدير والتدبير ، وموازنة الثواب للعباد .)) [1].

بينما المعنى الظاهر المشهور و المستور بين السطور لا يكاد يبين .

وبفضلٍ مِن الله نَبَعَ من الظاهر نبع العطاء الذي لا نفاد له وهو الخير الكثير على ما ظهر لنا من السورة المباركة .

فإن سأل سائل فإن لم يكن شكراً فماذا يكون ؟!

أجبناه إنه تفريع وتأسيس ، أي بعد إعطائنا الكوثر لك حينئذٍ صار لك مجال للصلاة والنحر ، أي بمعنى آخر : إن الصلاة والنحر مبنيان على الكوثر ، وقائمان به ، فما أعجب هذا !!!

وستأتيك التتمة ، فانتظر .

ونتم الحديث :

((فَصَلِّ لِربِّكَ وانحر))

((وإنما لم يقل لنا وقال " لربك " :

لأنّ فيه ما يسمى بالإلتفات ، وهي طريقة في الكلام تفيد التعظيم ، كما يقول الملوك : " يرسم الملك كذا " .

ولأنه لو أتى بضمير الجمع هنا كذلك فسيوهم الجمعية ، وفي هذا المقام الجمعية توهم الاشتراك ، سبحان الله.

ولو قال " لي " لانقطع النظم ، ولأنه يفيد أن سبب العبادة هو التربية .)) [2]

ويجدر هنا ذكر ملاحظة قد أفادها الدكتور فاضل السامرائي في لمساته البيانية :

((في القرآن كله لا يوجد موضع ذكر فيه ضمير التعظيم إلا سبقه أو تبعه إفراد بما يفيد وحدانية الله تعالى :

(ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ...إنا لله وإنا إليه راجعون) ؛[3]

(كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) ؛[4]

(ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك....وإلى ربك فارغب) ولم يقل والينا فارغب .

---

1 ابن عربي / الجزء الرابع / أحكام القران / سورة الكوثر .

2 تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان / القمي النيسابوري (ت 728 هـ) / بتصرف غير مخل .

3 ((وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ } سورة البقرة: 155-156

4 ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)) سورة البقرة: 172 .

وهكذا يتبين انه لم يذكر ضمير التعظيم في القرآن كله إلا سبقه أو تبعه ما يدل على الإفراد تجنباً للشرك.)) [1].

وهو كما قال ، كما في قوله تعالى :

((كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ } [2] .

فقال في البدء " أرسلنا " ولكنه قال بعد ذلك " فَاذْكُرُونِي " ؛ " وَاشْكُرُواْ لِي " أفرد .

وقوله تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)) [3].

فهنا عندما ذكر " رزقناكم " قال " وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ "

وقوله عز من قائل : ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } [4]

قال " جعلناكم " وقال " وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ "

كما إن ((الصلاة تكون للرب وليس للمعطي ، فإذا قال فصل لنا ، أو لي لأفاد أن الصلاة تكون للمعطي ، ولكنّ الصحيح أن المعطي له الشكر فقط ، وليس الصلاة حتى لا يتوهم أن الصلاة تكون لأي معطي ، والصلاة حق لله وحده ، إنما المعطي له الشكر فقط .)) . [5]، كما ذكرنا ذلك قبل قليل .

(وإنما لم يقل ضحّ وإن كان أشمل ، لأن أعز الأموال عند العرب هو الإبل فأمر بنحرها ، وصرفها إلى طاعة الله ، ففي ذلك قطع العلائق الجسمانية ، ورفع العوائق النفسانية .) [6].

وقال البقاعي : (لأن النحر أفضل نفقات العرب لأن الجزور الواحد يغني مائة مسكين ، وإذا أطلق العرب المال انصرف إلى الإبل .) [7].

ومنه يظهر لم لم يقل وتصدّق ، لأنه يشمل حينئذ القليل والكثير .

---

1 من اللمسات البيانية في هذه السورة المباركة للدكتور فاضل السامرائي .
2 سورة البقرة: 151-152
3 سورة البقرة: 172
4 سورة البقرة: 143 .
5 المصدر السابق ، لمسات بيانية .
6 تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان / القمي النيسابوري (ت 728 هـ) .
7 تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي (ت 885 هـ) .

وهو عطاء عظيم .

كما إنه ربما أراد هذا وغيره ، فلا يشمله لو جاء بغير هذي الكلمة .

كما مر عليك إذ فُسِّرَت برفع اليدين عند التكبير في الصلاة ، في بعض مرويات أهل البيت عليهم السلام ، فانتبه .

مرحلة أخرى من التفسير :

(قال الصادق فى قوله : { إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } ، قال : نور فى قلبك دلّك علىَّ ، وقطعك عمّا سواي .) [1].

وقد أورد البقلي الرواية ضمن كلام له حيث قال : (الكوثر الحقيقة ، استغراقه فى بحر جماله ، ودنوه فى منازل توبة ، وله كوثر القلب يجرى فيه انهار انوار مشاهدة الحق من بحار الازل والابد ، يزيد فى كل نفس سواقيها الى الابد .

قال جعفر : " نور فى قلبك دَلّك عليّ وقطعك عمّا سواي " ، وقال الشفاعة لأمّتك . وقال ابن عطا الرسالة والنبوة ، وقال معرفة بربوبيتى وانفراد بوحدانيتي وقدري ومشيتي ، وقال الجنيد أعطيناك نور المعرفة وانفراد الوحدانية) [2].

ولو قال الصادق فهو صفة على مسمى ، و قوله قال أبي ، وهو عن أبيه ، عن أبيه الحسين ، عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، عن جبرئيل عن الله ، فما بال فلان وفلان ، وماذا يريد من نقل قولهم بعد قوله ؟!

فما ذكره مطابق للسورة ولا يفارقها بحال .

وما ذكره ابن عطا مثلاً : فالصلاة والنحر من جملة الرسالة والنبوة ، فما معنى أن يفرع عن الأصل ويطلبه منه مثلاً ؟!

وقوله الثاني أوهى فإذا فهمنا معنى " معرفة بربوبيتى " ، فكيف نفهم قوله :

" وانفراد بوحدانيتي " وكيف نحركها ؟ وإذا قلنا إنها معطوفة على الجملة السابقة لتكون المعرفة منصبة على الإنفراد والوحدانية أي " ومعرفة انفراد بوحدانيتي " ، فما هذه الباء ؟

ثم لو لم توجد الباء فما معنى " معرفة انفراد وحدانيتي " ؟ ، وما هو بتركيب عربي أصلاً .

1 تفسير حقائق التفسير/ السلمي (ت 412 هـ)
2 تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن/ البقلي (ت 404 هـ) .

أما قول الجنيد " أعطيناك نور المعرفة وانفراد الوحدانية " فبعضه مأخوذ من الصادق وبعض لا معنى له ، فأي معنى يفيد " أعطيناك نور انفراد الوحدانية " ؟!

المهم : إن النور ، المعرفة ، الوحدانية ، الربوبية والإنفراد والتفرد ألفاظ كان لها وقعها الخاص ولا يزال ، وربما نأتي بها ولا نفهم حتى نحن ما نريد منها ، ولكن لنجلب الإنتباه .

و قد طار أهل العرفان في سمائهم الخاصة بهم ، ونزلوا بنجوم نثروها هنا وهناك مستلهمين معاني السورة بهذه الحقائق التي رأوها تجول في خواطرهم عند التفكر في هذه السورة المباركة :

قال العلامة الفيض رحمه الله : ((يخطر بالبال أن مثال الكوثر في الدنيا هو العلم و الحكمة ، و مثال أوانيه علماء الامة ، و لهذا فسر بالخير الكثير ، فإن الله عز و جل يقول : ((و من يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا و ما يذكّر إلا أولوا الألباب)) [1]

و يؤيد هذا ما رواه بعض علماء العامة عن مولانا الصادق عليه السلام في تأويل الآية : " إنا أعطيناك نورا في قلبك دلك عليّ ، و قطعك عما سواي " ، قال : و كان هذا منه عليه السلام نوع إشارة كإشارات الصوفية لا أنه تفسير السورة .

أقول : و من شرب كأس العلم من مشرب التحقيق علم أن مثل هذه الاشارة يرجع إلى التفسير عند التحقيق ، و يتحدان بحسب المعنى لما عرفت مرارا : أن لكل حقيقة في كل موطن صورة و مثالا ...)) [2].

و قال العلامة الطريحي رحمه الله : « و الحوض الكوثر ، و من كلام علي عليه السلام :

أنا ابن ذي الحوضين عبد المطلب
و هاشم المطعم في العام السغب

لعل المراد بهما الحقيقة ، و يحتمل أنه أراد العلم و الهدى .)) [3].

1 البقرة / 2 : 269 .
2 الفيض / علم اليقين / ج 2 / ص 987 .
3 الطريحي / مجمع البحرين / مادة « حوض » .

وقال المولى صدر الدين الحكيم الشيرازي رحمه الله :

((قال بعض العلماء : " إنا أعطيناك الكوثر "

فالكوثر صورته صورة الماء ، و حقيقته حقيقة العلم ، لست أقول : إن المراد من هذه الأمثال الواردة في القرآن مقصور على معانيها الباطنية العقلية من غير تحقق الصور المحسوسة كما يقوله الباطنية ، كلا ، بل نقول : الغرض منها العبور من مظاهرها إلى مطاويها ، و من صورها إلى معانيها ، فإن للقرآن ظهراً و بطنا ، و تأويلاً ، و تفسيراً .

ثم إذا شبه العلم مطلقا بالماء فيترتب عليه تشبيه أقسامه بأقسامه ، كتشبيه العلوم الحقة الخالية عن الشبه و الشكوك بالماء الطاهر الزلال ، و العلوم التي بخلافها بالماء الكدر المخلوط بالكثايف ، و كتشبيه اليقينات الدائمة بالماء الجاري أبدا ، و التي بخلافها بالماء المنقطع ، و كتشبيه العلم الذي يفيض من عند الله بإلهامه بلا واسطة معلم بشري بالماء النازل من السماء الجارية في الأودية بلا سعي و تعمل آلة و حفر قناة و استنباط ، و الذي يحصل بالفكر و الروية كالماء المستنبط من الأرض بالحفر و نحوه ، و الذي يحصل بالتقليد كالماء الذي يفرغ من حوض إلى حوض » [1].

و أنظر لما قاله العلامة الطنطاوي في تفسيره : بعد أن قدّم وصف الكوثر طينته وماءه ، وحافتيه وشاطئيه ومجراه وتربته ، ووصف كيزانه و طيره ، و استعرض آنيته وأنها عدد نجوم السماء ، ووصف طيوره .

و بيّن أن مَن شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا .

وبعد أن وصف الشاربين على ما جاء في حديث مسلم : « قالوا: يا نبي الله تعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون عليَّ غُرّاً [2] مُحَجَّلين[3] مِن آثار الوضوء ، و ليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون إليّ ، فأقول : يا رب هؤلاء من أصحابي ! فيجيبني ملك فيقول : و هل تدري ما أحدثوا بعدك » ؟ .

وهو ملخص ما جاء في الحوض من رواية صحيح البخاري و صحيح مسلم .

1 شرح اصول الكافي / باب معرفة الامام / ص 477 / ط طهران .
2 الغُرَّة من الرَّجُلِ وجْهُهُ ، وكل ما بدَا لكَ من ضوْءٍ أوصُبْحٍ فَقَدْ بَدَتْ غُرَّتُهُ.
3 المحجل من الخَيْل ونحو ذلك : ما ليس له من بياض إلا في مستوى الخلاخيل والقيود وفوق ذلك

بيّن أن المصلحين لمّا جاءوا قومهم ((ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة و صورة مفرحة و بهجة و جمال)) ، ثم ضرب مثالاً على ذلك كتاب « كليلة و دمنة » .

قال ((من قرأ هذا الكتاب عرف مقدرة الفيلسوف الهندي ، و كيف جاء بالسياسة و نظام المدنية و العلوم الاجتماعية في قوالب المحادثات الحيوانية .. .)) ((مما سر العامة بظاهره الطلي الجميل)) ولكنّ العلماء و الحكماء فهموا باطنه ومغزاه ، فكانت فائدته لكل أحد على مختلف طبقاتهم ومستواهم العلمي .

وكذلك كان الشرح النبوي للكوثر .

فالعامي من الناس ((يسمع الدر و الياقوت و شرابا أحلى من العسل ، فيفرح به فيعبد الله ليصل إلى هذه اللذات)) ، ((و العالم ينظر فيقول : إن هذا القول و راءه حكمة ، و وراءه علم ، لأنني أرى في خلال القول عجائب ، فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء ؟ و أيُّ دخلٍ لنجوم السماء هنا ؟ و لماذا عبّر به ؟ .

ثم يقول : لماذا ذكر أن الذين يردون الحوض يكون عليهم آثار الوضوء ؟

ثم يقول : لماذا ذكر أن عدد الآنية يكون أكثر من نجوم السماء ؟

و لماذا هذه المحافظة كلها على عدد نجوم السماء ؟)) .

والذي ذكره وإن كان يصح فيما ضرب من مثال إلا أن الله ورسوله أكرم وأعظم من أن يُقاس كلامهما بكلام هذا الفيلسوف الهندي وبالخصوص بتكلم الحيوانات الناطقي الذي لا حقيقة له فيها ، وكلامهما له حقيقة حتى لو كانا يشيران لمعانٍ عميقة ، وبذا أصبح لكلامهما ظاهر وبطون ، فتدبّر .

وإن لم يكن موفقاً بالمثال الأول فلعله كان ، واقترب في مثاله الثاني حيث قال :

((و الله جعل في أهل الارض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع ، و جعل أطباء يستخرجون منافع من الحبِّ و الشجر، و حكماء يستخرجون علوماً ، و كل لا يعرف إلا علمه ، فالطبيب يشارك الفلاح في أنه يأكل، و لكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطبية ، هكذا حكماء الامة الاسلامية يشاركون الجهلاء في أنهم

يفهمون الحوض كما فهموه ، و يردونه معهم كما يردونه ، و لكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الامة الذين يقودونها ، فماذا يقولون؟

يقولون : إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم يريد معاني أرقى ، إن الجنة فيها ما لا عين رأت ، و لا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فليس الماء الذي هو أحلى من العسل و أبيض من الثلج كل شيء هناك ، و أي شيء عدد نجوم السماء ، و لماذا خصصت النجوم بالعدد ، و الوضوء بالأثر ؟

و الذي نقوله :

إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه على ظاهره ، فما المسك الأذفر، و لا أنواع الجواهر النفيسة من در و ياقوت ، ولا حلاوة العسل التي في ذلك الماء ، و لا اتساع ذلك الحوض إلا أفانين العلم و مناظر بدائعه المختلفة المناهج ، العذبة المشارب السارة للناظرين .

إن هذه الأحاديث جاءت لترقية الامة الاسلامية ، بأن يردوا حوض رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بالعلم ، و هذه الأحاديث تشير إلى أن هذه الامة سينبغ منها اناس لا نظير لهم ستطهر نفوسهم ، و يكرعون من موارد العلوم الشريفة ، و يشربون من حوض رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و يدرسون العلوم التي بثها الله في هذه الدنيا و لا نهاية لها ، و لا يذرون شيئا مما خلق الله إلا عرفوه على مقدار طاقتهم ...فيصبحون خلفاء الله في الأرض فالقرآن يطلب هذه العلوم كلها ، فمن قرأ الفلك باعتبار أنه آثار جمال الله فقد ورد بعض حوض رسوله صلى الله عليه و آله و سلم ، و من درس الطب و الحكمة و التشريع ، أو عجائب النمل أو النحل كذلك ، أو نظام كسوف الشمس و القمر فقد ورد بعض حوض رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مع طهارة نفوسهم .

هذا هو سر حديث الحوض يدلنا على أن هذه الامة سيطول أمدها ، ستكون لهم دول و حكماء وعظماء .

و انظر كيف يقول :

إن هذا الحوض يُبعد عنه أناس هم مسلمون ، و لكن يقال للنبي صلى الله عليه و آله و سلم كما في البخاري ، و مسلم : « هل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » ، أُولئك الذين يطردون من الحوض هم الذين لم تستعد قلوبهم للعلم ، وهم لم يسعوا له . » [1].

((وقال أهل التحقيق السالكون : بل الواصلون لهم ثلاث درجات أعلاها أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله .

وأشار إليها بقوله : { إنا أعطيناك الكوثر } فإن روحه القدسية متميزة :

في الكثرة عن سائر الأرواح البشرية .

بالكم لأنها أكثر مقدمات .

وبالكيف لأنها أسرع انتقالاً من المقدمات إلى النتائج .

وأوسطها أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية وأشار إليها بقوله { فصل لربك } .

وأدناها أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانتصاب إلى اللذات العاجلة ، وهي قوله : { وانحر } ، فإن منع النفس الشهوية جارية مجرى الذبح والنحر .

ومن البيان أن ترتيب السالك هو الأخذ من الأدون إلى الأعلى ، وإنما ورد القرآن بما ورد تنبيهاً على أنه صلى الله عليه وسلم كان في نهاية الوصول ، وأن هذا الترتيب بالنسبة إليه ينعكس .

وذلك أنه جاء من الحق إلى الخلق .

ثم أشار بقوله { إن شانئك هو الأبتر } إلى أن دواعي النفس التي هي أعدى الأعداء لا بقاء لها ، وإنما هي لذات زائلة وتخيلات فانية ((والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً)) [2].

1 تفسير الجواهر / ذيل سورة الكوثر . و قد نقلنا كلامه بالتلخيص والتقطيع لكي تكون العبارة أخصر و أوضح .
2 تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان / العلامة القمي النيسابوري (ت 728) هـ .) .

المرحلة الأخيرة من التفسير :

((إنا أعطيناك الكوثر))

ربما يُزاد السؤال السابق قوة إذا علمنا أن الفعل الذي ليس له مطاوع أقوى في إثبات مفعوله من الفعل الذي له مطاوع ، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها ، وحينئذٍ فالإيتاء أقوى من الإعطاء ، لأنك تقول أعطاني فَعَطَوت ، ولا يُقال اتاني فأتيت ، وإنما فأخذت ، فلِمَ لم يستعمل الإيتاء هنا بدل الإعطاء ؟

وبه رجّح الجويني لماذا قدّم الإعطاء على الإيتاء في سورة الكوثر ، وقال : (وقد تفكرت في مواضع من القرآن فوجدت ذلك قال تعالى(تؤتى الملك من تشاء) ، لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا من له قوة ، وكذا (يؤتي الحكمة من يشاء) ، (آتيناك سبعًا من المثاني) لعظم القرآن وشأنه .) .

بتوجيهٍ عجيبٍ منه لهذه السورة العظيمة إذ قال :
(وقال(إنا أعطيناك الكوثر) لأنه مورود في الموقف مرتحل عنه قريب إلى منازل العز في الجنة فعبّر فيه بالإعطاء لأنه يترك عن قرب ، وينتقل إلى ما هوأعظم منه وكذا (يعطيك ربك فترضى) لما فيه من تكرير الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كل الرضا ، وهومفسر أيضًا بالشفاعة وهي نظير الكوثر في الانتقال بعد قضاء الحاجة منه ، وكذا(أعطى كل شيء خلقه) لتكرر حدوث ذلك باعتبار الموجودات ، (حتى يعطوا الجزيةعن يد ..) لأنها موقوفة على قبول منا وإنما يعطونها عن كره .) [1]

بعد أن قال : (لا يكاد اللغويون يفرقون بينهما فظهر لي بينهما فرق ينبئ عن بلاغة كتاب الله تعالى) ، وذكر ما جعلناه إشكالاً .

ولكن يرد عليه بما فُسِّر به الكوثر من كونه نهراً أو حوضاً في الجنة على لسان النبي الكريم صلى الله عليه وآله فكيف يقول (لأنه مورود في الموقف مرتحل عنه ، قريب إلى منازل العز في الجنة فعبّر فيه بالإعطاء لأنه يترك عن قرب) كما مر عليك الآن

1 من ذلك الإعطاء و الإيتاء / قاعدة في الألفاظ التي يظن بها الترادف وليست منه / النوع الثاني والأربعون في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها / الإتقان في علوم القرآن / عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضري المعروف بجلال الدين السيوطي .

وهو في الجنة الخالدة ، وفي اليوم الآخِر لا في هذه الدنيا الزائلة ، كما أنه من بركته يبقى أثره خالداً حيث لا يظمأ بعدها أبدا ؟!

ويقف اللبب عند قوله تعالى " ولسوف يعطيك ربك فترضى " .

و إذا كان قد عبّر عن إنزال القران إليه بالإيتاء ، والحكمة لمن منحها أنها بالإيتاء وقد فسر القوم الكوثر بذلك أيضاً ، أو بزيادة فكيف صح هذا بتوجيهه ، فتأمل فيه جيدا .

ولذا نقول بأن هذا زاد الإشكال ،لا أنه أزاله .

وكل أدلى دلوه كما مر بعضه سابقاً ، فقالوا وأضفنا :

1 : الفخر الرازي قدّم عدة وجوه أحسنها كان الوجه الرابع : ((كأنه تعالى يقول : هذا الذي أعطيتك ، وإن كان كوثراً لكنه في حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك ، وفي العادة أن المهدي إذا كان عظيماً فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال : إنها حقيرة أي هي حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدى له فكذا ههنا .)) [1].

2 : الإعطاء : لا يكون إلا في الخير :

قال تعالى : ((ولسوف يعطيك ربك فترضى))

والإيتاء : قد يكون فيما يكره المؤتى كذلك . والمثال على ذلك قوله تعالى :

((وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورا .)) .

3 : ((" أعطيناك " أي خولناك مع التمكين العظيم . ولم يقل : آتيناك لأن الإيتاء أصله الإحضار ، وإن اشتهر في معنى الإعطاء .)) [2].

1 الفخر الرازي / التفسير الكبير .
2 تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي (ت 885 هـ) .

4 : وقالوا : الإعطاء يدل على وجود أجر مقابل عمل ، أو على سبيل العطاء والكرم .

والثانية لا تدل إلا على التكليف (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم)

فكيف ؟

وقد قال تعالى : ((وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً .)) ، فأي تكليف في هذا ، وهو في يوم الجزاء لا في يوم التكليف ؟ إلا إذا كان المقصود من التكليف الكلفة .

5 : ((قال الفاضل النيسابوري : في الإعطاء دليل التملك دون الإيتاء . إنتهى .

قلت : ويؤيده قوله تعالى : " إنا أعطيناك الكوثر " ، فإنه كان له منع من شاء منه كالمالك للملك ، وأما القرآن فحيث أن أمته مشاركون له في فوائده ، ولم يكن له منعهم منه ، قال : " ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم " .)) [1].

ولكن في التأييد وجهة نظر حيث قال تعالى : ((وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)) [2]، فله منع من يشاء ، بدليل الشكر الذي يتمم الآية المباركة فله أن يشكر .

فالمنع وعدمه لا وجه له ، وإن كان من ملازمات التملك ، وقول النيسابوري له وجهه الوجيه ، ولعله لذا جعله مؤيداً ولم يجعله دليلا .

6 : وقال العلامة السيد جعفرمرتضى العاملي في تفسيره لسورة الماعون ، وتعرضه لقضية تصدّق أمير المؤمنين علي عليه السلام بخاتمه ، ونزول قوله تعالى ((إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)) [3]: ((والتعبير بالإيتاء ، دون كلمة "الإعطاء" لأن معنى آتاه : أوصل إليه شيئاً ساقه إليه ، من دون إلماح فيها إلى أن من يفعل ذلك هل هو مالك للشيء ، غير مالك له .

أما الإعطاء فقد يقال : بأنها لا تخلو من إشارة إلى مالكية وسيطرة من قبل من يعطي على ما أعطى.

1 (344 : الفرق بين الايتاء والاعطاء) / معجم الفروق اللغوية / أبو هلال العسكري .
2 / لقمان 12
3 سورة المائدة ، الآية 55 .

والمناسب في هذا المورد هو عدم الإشارة إلى ذلك .)) [1].

ونقول : والمناسب هنا في مورد الآية المباركة الإعطاء دون الإيتاء ، أي العكس ، لأنّ الله تعالى هو المالك والمنعم ، وهذه عطية خاصة فكأنها ملك خاص حوِّل إلى ملك خاص ، وفيه إشارة لعلو ورفعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ودلالة أخرى على عظمة ما أعطي ، كما لا يخفى على من تنبه لهذا ، وتأمّل فيه .

7 : وقالوا : ((الإعطاء والعطاء أقوى من الإيتاء من حيث اللفظ الصوتي ، ومن حيث الدلالة .)) [2].

فإذا كان أمراً مادياً ، فيه قوة تمليكية يستعمل الأول فيقول : (إنا أعطيناك الكوثر)

وإذا كان أمراً غير ذلك من جهة أنه غير مادي بل معنوي ، وقد يطرأعليه طارئ معين مثل أن يُرجع به ، أويُنسى مثلاً فإنه يستعمل حينئذٍ الإيتاء ، فيقول : (وآتت كل واحدة منهن سكينا) .

وهنا نلاحظ أن هناك فيه نوعاً من الرقة كذلك ، بالإضافة لكونها ستسترجع .

(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة) المال هو مال الله .

من خلال استقراء الآيات نجد أن لفظ " أعطيناك " فيه شيء مادي فيه تملّك ، و لفظ " آتيناك " فيه شيء معنوي ، وقد يُرجع به ، وقد يُنسى .

و(آتت كل واحدة منهن سكينا) ستُرجع هذه السكين ، إذاً هو ليس عطاءاً .

لو قال أعطت يمكن أن يكون تملكاً ، و لذا استعمل " آتت " إذ أن عملية الإيتاء ليست نهائية لأنها ستُردّ .

ولذا قالوا : ((يعني لو قال أعطت : أولاً الصوت يختلف ، ثانياً العطاء يكون فيه عدم الاسترداد .

ثم مع مناسبة الإيتاء أيضاً للمتكأ ، ولأعتدت ، هذا (حرف التاء والياء والهمزة التي هي أخف) ولعلها مناسبة لمجلس النسوة .

---

1 أنظر التفسير المذكور .

2 من بحث تحت عنوان : يستخدم تعالى في القرآن بعض الأفعال التي ربما تتشابه حرفياً ولها نفس الدلالة مثل (أعدّ وأعتد) وقال تعالى (وأعتدت لهم متكئاً) لماذا لم يقل وأعدت لهنّ ؟ للدكتور (حسام النعيمى) . / من دراسة له كتبت في سورة (يوسف.).

لا شك أن العرب كانت تفهم الفوارق بيت الأصوات لذا كان العربي يستعمل هذه الكلمة هنا وهذه الكلمة هنا ، ويدرك هذا .

لم يكن هذا الاستعمال السامي الرفيع الذي نجده في القرآن موجوداً حتى في الشعر ولو وجدناه فإننا لا نجده بهذه الطريقة المتكاملة . فهم كانوا يتحسسونها ، ولكن ما كانوا يقولونها بهذه الطريقة ، مع إنهم يحسونها))[1].

7 : وأخيراً نقول : بما إن الإعطاء بحسب الإستقراء :

لا يكون إلا في الخير ، ويدل على التخويل والتمكين العظيم ، وهو دليل التملك دون الإيتاء ، وهو من مالك ليتملكه آخر .

وقد يدل الإعطاء على وجود أجر مقابل عمل ، وهو ما وعد به ربه الكريم ، أو بلا ذلك بل تفضل وكرم وهو ما يناسب صفات الباري عز وجل .

و الإعطاء والعطاء أقوى من الإيتاء من حيث اللفظ الصوتي ، ومن حيث الدلالة ، من جهة كون الإيتاء قد يكون لأمرٍ غير مادي بل معنوي ، وقد يطرأعليه طارئ معين مثل أن يُرجع به ، أويُنسى مثلاً ، لكل ذلك استعمل هنا " أعطيناك " ولم يستعمل " آتيناك " .

فدل على أنه محض خير ، قد وقع موقع التملك الشخصي ، فلا يمكن نزعه منه ، وهو مِن أجره الذي وعد به ، وهو من كرم الله تعالى وجوده ، وهو أمر حتى وإن كان أمراً معنوياً فله وجوده المادي المرتبط به .

بالإضافة إلى ما ذكرناه أولاً من إشكال حيث قلنا (وربما يُزاد السؤال قوة إذا علمنا أن الفعل الذي ليس له مطاوع أقوى في إثبات مفعوله ، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها .) ، فبناءاً على هذا فالإيتاء أقوى من الإعطاء ، فلماذا اختار الإعطاء دونه ؟!

نقول هنا ينعكس الأمر فالمقام مقام عبودية وعطية من ربٍ لعبده ، والعبد كلما كان مطاوعاً لمولاه كان أكثر عبودية و أكثر قرباً منه ، ولذا كان استعمال الفعل الذي له مطاوع أقرب وأحسن وأليق بالمقام من الفعل الآخر وإن كان الآخر (الذي ليس له مطاوع أقوى في إثبات مفعوله) ، فتأمل في كل هذا فإنه أعجب العجب ، كيف التقت كل هذه المعاني في هذه اللفظة هنا ، وتناسقت مع المعنى ؟

1 بأدنى اختلاف / المصدر السابق .

فضلاً عن المعنى الذي ذكرناه للفخر الرازي .

وهكذا نظن أن كل مواضع كلمات الله تعالى جاءت بهذه الدقة وأكثر ، ولكن علومنا تقصر من أن تدرك هذا كله ، نسأله أن يفتح أذهاننا وقلوبنا لفهم كتابه العزيز أكثر فأكثر .

فالمعطي عظيم والعطاء منه عظيم على أي حال وفي أي صورة ، فكيف إذا كان المُعطى عظيماً أيضاً ؟!

وليس هذا فحسب بل يصفه العظيم بالعظمة ، ثم يبني عليه أهم دعامة بالإسلام ، وهي عمود الدين إذ يقول " فصل لربك وانحر " .

وبما أن السورة كما رأينا مرتبطة بالنسل ، وانقطاع النسل وهو ما ثبتته الآية الأخيرة في هذه السورة المباركة ، ولو تمعنا في ذلك لما وجدنا ما يرتبط بنسله ، والكون منه إلا الزهراء البتول سلام الله عليها .

ولو قال قائل فبقية بناته ..؟

نجيب إنه من أول الحديث أن يكنّ بناته الصلبيات ، وحتى لو سلَّمنا فذريته محصورة في نسل الزهراء من علي عليه السلام دونهما ، فلا يبقى مجال شك بأنها المعنية من هذا كله .

إنّا .....

أعطيناك .....

الشئ الكثير.....

إنّا .....

أعطيناك .....

الكوثر : فاطمة الزهراء .

بقرينة سبب نزول السورة المباركة ، وبسبب القرينة اللفظية التي في آخرها ، كما هو واضح أوضح من الشمس .

فمن هي الزهراء ؟ ، وما هي الزهراء ؟

من هذه السورة سنعرف بعض عظمتها ، ومقامها عند الله سبحانه .

فلنستمر بالبيان :

إنا أعطيناك الكوثر : الخير الذي لا انقطاع له .

فإذا كانت الزهراء هي الكوثر ، فما دخل الصلاة ؟

أي فما دخل أن يخاطبه الباري عز وجل فيقول له (فصل لربك وانحر) ؟

وخاصة على الرأي الذي ذهبنا إليه من أنه ليس من باب الشكر ، بل من باب التأسيس .

النقطة الإرتكازية التي غفل عنها القوم أن هذا العطاء يجب أن يكون لا حدود له .

ومن لا حدود له هو الله ، فيجب أن يكون مرتبطاً بالله دائماً .

وهذا لا يمكن أن يكون محصوراً لا بالنهر [1] ، ولا بما فسروه ولم يثبتوه إلا بمعاني هم علموا أنها يجب أن ترتبط بالرسالة وبالنبوة .

ولكن كيف ، والإشارة إلى النسل ، والأمر منحصر بالبنت ؟

فما كانت كلماتهم إلا ثمرات أقتطعت من الشجرة ورميت على ما هي عليه من دون ربط .

وإلا فما ربط الأبتر التي حاولوا أن ينبزوا بها رسول الله صلى الله عليه وآله التي هيَ أساساً مرتبطة بفقدان الولد الذكر ، بالرسالة والنبوة والقران...الخ. التي جاء بها المفسرون ، ثم وسم الشانئ بالأبتر وهو كثير الولد؟

لو تمعنا في ذلك لرأينا أنه :

1 : إنه أعطاه الزهراء ..... وهذا ماذا يعني ؟

1 وإن كان قد ورد ، وهو الثابت فهو بالمعنى المربوط بهذا المعنى ، فتأمل تجد الحق واضحاً .

يعني أن الزهراء مرتبطة به من جهة ، ومن جهة ثانية بدين الله ، كما ذكرنا أنه لا بد من هذين الرابطين .

فما ربط الزهراء عليها السلام بدين الله ؟!

بحيث يكون استمرار لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله رسول الله واستمرار لدين الله .

وما استمر إلا بولد الزهراء سلام الله عليهم جميعاً .

وبذا كان ، وبهذا صرّح أن ولد الزهراء هم ولده ... وليس هذا فحسب ، بل هم الخير الكثير .

وماذا يعني هذا ؟..... وكيف كانوا هم الخير الكثير ؟

فلكثير من الناس أولاد كثيرون ، فهو عطاء ليس خاصاً بمحمد صلى الله عليه وآله .

من هنا نتدرج ونقول إن ذريته مطلقاً ليسوا هم المقصودين ، بل المقصودون ما هم إلا ثلة منهم ، بهم يتحقق شيئان أولاً : هم من ذريته ، ثانياً : هم عطاء ربك ، و هو عطاء غير مجذوذ .

فكيف يكون كذلك ؟

قد قال الله تعالى ((ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا)) فهم العباد المصطفون الذين ورثوا الكتاب ، ((ذرية بعضها من بعض)) .

فميراث الكتاب عندهم أي بهم ستبقى الرسالة ، وبهم سيبقى القران والإسلام فلاحظ الربط ، وتمعن فيه ففيه نجاتك من النار .

فالكوثر يعني فاطمة ، وفاطمة تعني هؤلاء ، وهؤلاء يعنون الدين والقران والإسلام والبقاء ، فانظر كيف ارتبطت المعاني بعضها بالبعض .

وبعلي الذي ارتبط بفاطمة كانت إستمرارية بقاء نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وببقائهم استمر عطاء ربك ببركة محمد وآل محمد صلى الله عليهم أجمعين .

وهو الخير الكثير الممدود ، والسبب المتصل بين الأرض والسماء .

وبهذا نفهم قوله تعالى :

((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا))

و أنها نزلت بعد أن أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وآله أن يبلغ ولاية علي التي تعني ولاية أولاده الطاهرين ، الذين هم من نسله ، فبلّغ .

فالولاية تمام النعمة .

ثم إن الصلاة عمود الدين ولا يقوم البناء إلا بالعمد ، فقيام الدين بالصلاة ، والصلاة هنا بظاهر الآية متفرعة على ذلك الخير الكثير .

فالفاء في قوله : " فصلِّ " للتعقيب والتسبيب .

أي : بسبب هذه المنة العظيمة وعقبها أمرك بعبادته .

أي بمعنى أدق أنه ما دامت الأرضية قد هُيّئت فلتقم الصلاة .

وماذا يعني هذا ؟!

يعني أن أرضية الصلاة التي هي عمود الدين ما هي إلا شئ مربوط بفاطمة ، ولا نجد أي شئ يصلح إلا ولاية آل البيت المتصلين بفاطمة ، ولذا كانت هي المدار .

فهو رمز لحقيقته الفاطمية المتعلق بالذرية ومن جانب آخر بالبتر لشانئه .

وما هو إلا اتباع الذرية الذي هو الإسلام بعينه ، فما هو إلا الولاية .

ولو قلنا المعرفة فهو معرفة آل محمد صلى الله عليه وآله وهم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها .

ومن هنا نفهم بعض قول الباري لجبرئيل عليه السلام عند سؤاله عمّن تحت الكساء ؟

في حديث الكساء المشهور ، من أنهم فاطمة و أبوها وبعلها وبنوها .

أي عمود الدين لا يقوم إلا على هؤلاء .

فلعله لذاك سوف لا تُقبل الصلاة من أي منكر للولاية مهما كان ؟

فالعمل الصحيح لا يمكن أن يكون إلا مستنداً على الولاية الحقة ، فانتبه ، وكن من الشاكرين .

وهو الذي يقول :

((قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا)) [1].

ونحن شئنا أن نتخذ إلى ربنا سبيلا ، فما هو يا رسول الله صلى الله عليك وآلك وسلم ونحن نعلم من أنك لا تطلب أجرا أصلاً إلا من الله ، كعادة المرسلين ؟

((قل لا أسألكم عليه من أجر إلا المودة في القربى)) [2].

إذاً المودة مطلوبة منا وهي أجر الرسالة .

فلبيك يا رسول الله وسعديك .

و إذا به يقول :

((قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله)) [3].

فالأجر عائد لنا ، ومنفعته كذلك ، إذ بذلك سوف تظهر معالم ديننا واضحة ، وبهم سوف لا يشوبها شائبة .

وهو إكمال الدين ، وتمام النعمة ، التي بُني عليها الإسلام العملي من أول الأمر .

و ربما وصل إلى الحقيقة غيرنا حتى من علماء المذاهب البقية ، إلا أن مذهبه كان مانعاً من رؤيته لعلماء أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم المقتدى بهم ، وما هم إلا العلماء الذين هم من نسله ، ويحملون علمه ، ودينه يقوم بهم بهذا العطاء العجيب ، وهذا ما نقوله بعينه ، فانظر للبقاعي حيث يقول :

---

1 57 الفرقان .
2 الشورى 42 .
3 34 سبأ .

(({ الكوثر } الذي هو من جملة الجود على المصدقين بيوم الدين .
ولما كان كثير الرئيس أكثر من كثير غيره ، فكيف بالملك ، فكيف بملك الملوك ، فكيف إذا أخرجه في صيغة مبالغة ، فكيف إذا كان في مظهر العظمه ، فكيف إذا بنيت الصيغة على الواو الذي له العلو والغلبة ، فكيف إذا أتت إثر الفتحة التي لها من ذلك مثل ذلك بل أعظم .

كان المعنى : أفضنا عليك وأبحناك من كل شيء من الأعيان والمعاني من العلم والعمل وغيرهما من معادن الدارين ومعاونهما الخير الذي لا غاية له ، فلا يدخل تحت الوصف ، فأغنيناك عن أن تؤثر بذلك أو توفر مالك بجلب نفع أو دفع ضر .

ومنه النهر الذي في الجنة ويسقي المؤمنين من الحوض الممدود منه في المحشر ، الذي مثاله في الدنيا شريعته صلى الله عليه وسلم التي عراها وأسبابها عدد النجوم الذين هم علماء أمته المقتدى بهم ، فقد اجتمع لك الغبطتان : أشرف العطاء من أكرم المعطين وأعظمهم .)) [1].
و إن كان قد طار في موضعٍ آخر لما وراء البحار ، ونظر بالأغوار ، ولم ينظر لما تتفتح مباشرة من كلمات السورة من لطائف الأزهار ، لتلقح وتنقح الأفكار ، ليُجتنى منها بدائع الأثمار .

بينما نرى ذهنه يقصر أن يحيط بهؤلاء العلماء الحقيقيين المرتبطين بالكوثر والمشار إليهم بالروايات التي تفسره ، ولا يتعب نفسه بالبحث عن ماهية الإنقلاب الذي حدث بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فكان مانعاً لِمن اشترك فيه أن يكون وارداً لهذا الكوثر العظيم نراه يحلق في خياله الخصب ، ويذهب لأبعد من ذلك بكثير ، منسّقاً ومقوماً ومنظراً ومثبتاً لأمور بعيدة جداً عن الكلمات و الكلم ، حيث يقول : ((ثم إن هذه السورة عشر كلمات في الكتابة إشارة إلى أن تمام بتر شانئه يكون مع تمام السنة العاشرة من الهجرة ، وكذا كان ، لم تمض السنة الحادية عشر من الهجرة وفي جزيرة العرب إلا من يرى أشرف أحواله بذل نفسه وماله في حبه .

وإذا أضفنا إليها الضميرين المستترين كانت اثنتا عشرة ، وفي السنة الثانية عشرة من النبوة بايعه صلى الله عليه وسلم الأنصار على منابذة الكفار .

1 تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي (ت 885 هـ) .

وإذا أضيف إلى العشرة الضمائر البارزة الخمسة كانت خمس عشرة ، فتكون إشارة إنه صلى الله عليه وسلم عند تمام السنة الخامسة عشر من نبوته يبسط يده العالية لبتر أعدائه وكذا كان في وقعة بدر الرفيعة القدر .

ففي ضمائر الاستتار كانت البيعة وهي مستترة ، وفي الضمائر البارزة كانت بدر وهي مشتهرة .

وإذا أضيف إلى ذلك الضميران المستتران كانت سبع عشرة ، وفي السنة السابعة عشرة من نبوته كانت غزوة بدر الموعد ، وفى فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالوعد في الإتيان إلى بدر ، للقاء قريش للقتال ، ومقارعة الأبطال ، فآذنهم الله فلم يأتوا .))

ويطير في خياله أكثر فيقول : ((وإنما اعتبر ما بعد الهجرة من أحوال النبوة عندما عدت الكلمات الخطية العشر لكونها أقوى أحوال النبوة ، كما أن الكلمات الخطية أقوى من الضمائر وإن اشترك الكل في اسم الكلمات ، فلذلك أخذ تمام البتر للشانىء وهو ما كان في السنة الحادية عشرة من هلاك أهل الردة ، وثبات العرب في صفة الإسلام .

ولما ضمت الضمائر البارزة الخمسة - التي هي أقرب من المستترة - إلى الكلمات الخطية وأضعف من الكلمات الخطية اعتبر من أول السورة لمناسبة ما كان من ضعف الحال فيما كان قبل الهجرة ، فوازى ذلك السنة الثانية من الهجرة التي كانت فيها غزوة بدر الكبرى، وهي وإن كانت من العظم على أمر بالغ جداً لكنها كانت على وجه مخالف للقياس ، فإن حال الصحابة رضي الله عنهم كان فيها في غاية الضعف ...)) ....

ويسطر مثل هذا الخيال ويسود به الأوراق ليجعله من التفسير ، فارجع هناك لتجد ما يضحك الثكلى من هذه الترهات التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ويختم كلامه بقوله : ((والله الموفق ، هذا يسير من أسرار هذه السورة)) [1].

ولم أجد ما ينفع في المقام ، ولم أجد ما يثبت ذلك في تفسير ما لله من كلام ، لا عند الجمهور ، فهم قد ذهبوا مذاهب شتى كما رأيت .

و أقربهم ربما وصل إلى الحقيقة ، إلا أن مذهبه كان مانعاً من رؤيته لعلماء أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم المقتدى بهم ، وما هم إلا العلماء الذين هم من نسله ، ويحملون علمه ، ودينه

1 تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / البقاعي (ت 885 هـ) ./ راجع هذا التفسير لتر العجب .

يقوم بهم بهذا العطاء العجيب ، وهذا ما نقوله بعينه ، فانظر لمن أتينا به مثلاً أي للبقاعي فهو يقول :

(({ الكوثر } الذي هو من جملة الجود على المصدقين بيوم الدين .
ولما كان كثير الرئيس أكثر من كثير غيره ، فكيف بالملك ، فكيف بملك الملوك ، فكيف إذا أخرجه في صيغة مبالغة ، فكيف إذا كان في مظهر العظمه ، فكيف إذا بنيت الصيغة على الواو الذي له العلو والغلبة ، فكيف إذا أتت إثر الفتحة التي لها من ذلك مثل ذلك بل أعظم . .....)) [1].

ولكنه لم يصل إليه ، ولم يدركه ، كما مر عليك .

فلا من هؤلاء العلماء مَن وصل ، إلا من رأيت حيث تراه يحوم ولا يصل ، ولا من الخاصة حيث إنهم أشاروا لذلك بخجل ظاهر ، إلا ما وجدته بعد تدويني لهذا الكتاب وقبل طباعته ، ما ذكره صاحب تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة العلامة الجنابذي [2].

والملفت للنظر أنه لم يتوسع ، بل كل ما أذكره هو كل تفسيره لهذه السورة المباركة ، حيث قال :

((إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } قد فُسّر الكوثر بنهرٍ فى الجنّة ، وهو حوض النّبىّ (ص) ، عليه آنية عدد نجوم السّماء يذود محمّد (ص) وعلىّ (ع) عنه اعداءهما ، ويسقيان شيعة علىٍّ (ع) عنه .

---

1 تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي (ت 885 هـ) .

2 ((يقول الذهبي في كتابه « التفسير والمفسرون » ((مؤلف هذا التفسير هو السلطان محمد بن حيدر الجنابذي الخراساني أحد متطرفي الإمامية الإثنى عشرية في القرن الرابع عشر الهجري ، لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا .)) .
كانت ولادته سنة (1251 هـ) سافر إلى مدينة مشهد طلباً للعلوم الأدبية ، ثم إلى النجف الأشرف لأخذ العلوم الدينية ، ثم إلى مدينة سبزوار لأخذ العلوم العقلية من الحكيم الشهير الحاج ملاّ هادي السبزواري .
توجه بعدها إلى إصفهان طالباً مقصوده فالتقى بالعارف الشهير الحاج محمد كاظم الملقب بسعادة علي شاه فتلقى الأذكار القلبية منه ، ودخل في سلك الصوفية ، وفي السلسلة المشهورة ب (النعمة الإلهية) .
وفي العودة من إصفهان تزوج ، وبعد مدة قليلة تهيجت أشواقه لزيارة شيخه مرة ثانية ، فسافر إلى إصفهان مرة أخرى .
وفي سنة (1284 هـ) لقب ب (سلطان علي شاه) .
وفي سنة (1293 هـ) تُوفي شيخُهُ ، وبوفاة الشيخ انقسمت السلسلة إلى سلاسل متعددة ، فترأس سلطان علي شاه السلسة الجنابذية ، وأصبح مؤسسها وقطبها ، فاستقر في قرية (بيدخت) في ضواحي مدينة (جنابذ) الواقعة في مقاطعة خراسان .
وفي ليلة السبت السادس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (1327 هـ) تُوفي مخنوقاً غريقاً ، فدفن في (بيدخت) .
ولهذه السلسلة الصوفية المعروفة ب(الجنابذية) آدابها ورسومها في حلقات الذكر العملي ولها اعتقاداتها الخاصة بها أيضاً ، لها زوايا وتكايا كثيرة منتشرة في جميع بلاد إيران .
مؤلفاته : للجنابذي مؤلفات باللغتين العربية والفارسية ؛ والمشهور منها باللغة العربية هو الإيضاح ، وبيان السعادة في مقامات العبادة ، وبالفارسية ، سعادتنامه ، مجمع السعادة ، ولايتنامه ، وبشارة المؤمنين وتنبيه النائمين .
ولما كان المؤلف شديد العلاقة بشيخه سعادة علي شاه سمي ثلاثة من مؤلفاته بإسمه وهي سعادتنامه ، بيان السعادة ، مجمع السعادة .)) . من مقدمة التفسير بتصرف / للدكتور عادل نادر علي / جامعة الرازي ـ كرمانشاه .

والكوثر فى اللّغة الكثير من كلّ شيءٍ ، والكثير الملتفّ من الغبار ، والاسلام ، والنّبوّة ، والرّجل الخيّر المعطاء كالكثير مثل الصّقيل ، والسّيّد ، ومطلق النّهر ونهر فى الجنّة يتفجّر منه جميع انهارها . إعلم انّ الولاية هى الكوثر باكثر معانيه ، وهى الّتى أعطاها بتمام حقيقتها محمّداً (ص) ، وبسببها اعطاه النّبوّة والرّسالة والعلم والحكم والاتباع الكثير والأولاد الكثيرين ، والقرآن ودين الاسلام ، والصّيت والسّلطنة، والخير الكثير فى الدّنيا والآخرة ، وهى الّتى تكون بصورة النّهر والحوض فى الآخرة .

وهى الّتى تصوّرت بصورة علىٍّ (ع) فى الدّنيا ، وقد اعطاه الله محمّداً (ص) ومنّ به عليه .)) .

وهو كما ترى قد اختصر أشدَّ الإختصار ، ولم يبين .

ولم يتم الربط الظاهري في المطلب مع دقته .

ونحن بحمد الله قد ظهر لنا هذا كله ، بما منَّ الله علينا به ، بحيث ثبت ذلك من خلال نفس كلمات الآيات المباركات تلك ، و قد ثبتت على كلماتها معانيها .
وأخيراً نقول :

لِما ذكرنا من أنها أقصر سور القران الكريم وقد تحدى بالإتيان بسورة مثله فالأنظار تتجه نحو الكوثر ، وهنا يمكن أن تكون نكتة عجيبة وغريبة لعله منها سُميَ أهل البيت بالثقل الأصغر والقران بالثقل الأكبر في حديث الثقلين ــ وَلْيُلتفَتْ مِن أن العلة ليست محصورةً فيها ، بل هي مجرد إشارة ، وإلا فالحديث حولها عميق ودقيق يحتاج لبحث خاص . ــ لأن التحدي بهم بدأ من هنا إذا صح التعبير ، فأنظارالذي يريد أن يُعارض القران تتجه نحو أصغر سورة في كتاب الله المجيد ، وهي سورة الكوثر ، والذي يريد أن يتحدى الإسلام أنظاره تتجه بلا ريب ولا شك إلى أهل البيت ، المُشار إليهم بسورة الكوثر كذلك ، فإليهم يرجع مَن يتحدّى حتى يتبين له الحق من الباطل ، والكوثر جزء من القران ، وهم كل الإسلام ، فمِن سورةِ الكوثر يُستدل على إعجاز القران ويُعرف به ، ومنهم يُستدل على عظمة الإسلام ، ويُعرف بهم ، فسبحان الله على هذا التناسق العجيب الغريب .

وهي خصيصة أخرى تُضاف لِما ذُكِر .

ولا يفترقان حتى يردا عليه الحوض ، أي حوض الكوثر ، فتأمل .

لِماذا الحوض والطرد ؟!

((قال أبو بشر قلت لسعيد : فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة . قال النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله عز وجل إياه صلى الله عليه وسلم .

وحكى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً ، وفيه إشارة إلى أن ما صح في الأحاديث من تفسيره صلى الله عليه وسلم إياه بالنهر من باب التمثيل والتخصيص لنكتة ، وإلا فبعد أن صح الحديث في ذلك بل كاد يكون متواتراً كيف يعدل عنه إلى تفسير آخر ؟! وكذا يقال في سائر ما في الأقوال السابقة وغيرها .)) [1].

ويبقى سؤال عالق وملح :

لماذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أعطاه الله الكوثر ، وأمره بالصلاة والنحر ، وبشّره بكون شانئه هو الأبتر ، وهو من الكرامة و السعادة والخير بمكان ، بعد أن يصف الحوض لأصحابه بما يُحيّر الألباب ويذهب بالعقول ، ليُفرحَ القلوب ويسعدها ، أقول لماذا يُنغّص ذلك كله عليهم بإخبارهم من أن هناك جماعة من أصحابه سيأتون ليردوا الحوض يوم القيامة فيُطرَدون عنه ؟!

وما علاقة ذلك بهذه البشارة العظيمة ؟!

فهنا الشانئ والأبتر .

وهنا أعطيناك الكوثر .

والكوثر نهر في الجنة أو حوض فيها ، سيرده قوم ، ويتخلف عنه آخرون .

فالذي يرده ملحق بالكوثر ، والآخر ملحق بالشانئ والأبتر .

والسورة بنفسها خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، كما تنبه لذلك المفسرون .

1 روح المعاني .

قال سيد قطب في أول تفسير هذه السورة المباركة : ((هذه السورة خالصة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كسورة الضحى ، وسورة الشرح .

يسري عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ...)) [1].

وصِفَة المطرود هيَ : (لا تدري ما أحدثوا بعدك) .

واللطيف في المقام أن رواية الحوض من المتواترات عند المسلمين .

((قال الشّيخ محيي الدّين النّووي : قال القاضي عياض أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، والتصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة ، والجماعة لا يتأول ، ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل رواه الخلائق من الصحابة : فذكره مسلم من رواية ابن عمر وأبي سعيد ، وسهل بن سعد ، وجندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر ، وعائشة وأم سلمة ، وعقبة بن عامر ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وحارثة بن وهب ، والمستورد ، وأبي ذر ، وثوبان ، وأنس ، وجابر بن سمرة .

ورواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصّديق وزيد بن أرقم ، وأبي أمامة ، وعبد الله بن زيد ، وأبي برزة ، وسويد بن حبلة ، وعبد الله بن الصنابحي ، والبراء بن عازب، وأسماء بنت أبي بكر الصّديق وخولة بنت قيس ، وغيرهم .

قال الشيخ محيي الدّين ورواه البخاري ومسلم أيضاً من رواية أبي هريرة .

ورواه غيرهما في رواية عمر بن الخطاب وعائذ بن عمرو وآخرين .

وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه البعث والنشور ، بأسانيده وطرقه المتكاثرة .

قلت : وقد اتفقا على إخراج حديث الحوض وعن جماعة ممن تقدم ذكرهم من الصّحابة على ما سبق ذكره في الأحاديث ، وفيه بيان ما اتفقا عليه ، وانفرد به كل واحد منهما ، وأخرجا أيضاً حديث الحوض عن أسماء بنت أبي بكر الصّديق وذكرها القاضي عياض ، فيمن خرج له في غير الصحيحين .

قال القاضي عياض وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً .)) [1].

1 في ظلال القران .

وهاك أحاديث " صحيح البخاري " في ذلك ، لتطمئن نفسك ويرتاح بالك :

((حدثنا سعيد بن أبي مريم عن نافع بن عمر قال حدثني ابن أبي مليكة عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت :
قال النبي صلى الله عليه وسلم إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم ، وسيؤخذ ناس دوني فأقول يا رب مني ومن أمتي . فيقال هل شعرت ما عملوا بعدك ، والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم . فكان ابن أبي مليكة يقول اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا ..)) [2].

فمَن هم أولئك ؟!

هل كما قال بعضهم إنهم ..... وجاءوا بأسماء فرق وجماعات تولدت بعد عهد الرسول صلى الله عليه وآله بزمن ؟!

أم قوم مخصوصون ؟!

فتعال لنقترب أكثر من الأحاديث التي جاء بها البخاري لا غيره ، لنطلع عليهم أكثر ونشخصهم تشخيصاً لا ريب فيه ولا شبهة .

جاء في " صحيح البخاري " :

((و حدثني عمرو بن علي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن المغيرة قال سمعت أبا وائل عن عبد الله رضي الله عنه :
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أنا فرطكم على الحوض وليرفعن معي رجال منكم ثم ليختلجن دوني فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك .) .
تابعه عاصم عن أبي وائل وقال حصين عن أبي وائل عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم.)) [3].

إذاً هم على حد قول الرسول صلى الله عليه وآله (يا رب أصحابي) .

---

1 تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل/ الخازن (ت 725 هـ) .
2 ص البخاري / أحاديث الحوض/ ح 6104 .
3 ص البخاري / أحاديث الحوض/ ح 6090 .

ولو لم نصدق أعيننا فلننظر للحديث الآخر :

((حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا وهيب حدثنا عبد العزيز عن أنس :
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي فيقول لا تدري ما أحدثوا بعدك .)) [1].

فانظر لقوله صلى الله عليه وآله : (ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى عرفتهم ، اختلجوا دوني ، فأقول أصحابي .) ، فتوكيد ذلك :(ناس من أصحابي) ، (حتى عرفتهم) ، ثم (فأقول أصحابي) ، فبعد معرفتهم أنهم من أصحابه يقول أصحابي ، إذاً لا شك في ذلك ، ولا ريب في كونهم من أصحابه ، ولا علاقة للفرق والمذاهب التي ستأتي أو أتت .

ثم هاك زيادة وكلها من البخاري :

((حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن مطرف حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال :
قال النبي صلى الله عليه وسلم : إني فرطكم على الحوض مَن مرّ عليَّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا .

لَيَرِدَنَّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يُحال بيني وبينهم .
قال أبو حازم فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت نعم ، فقال أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها : فأقول إنهم مني ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقا سحقاَ لِمَن غيّر بعدي .

وقال ابن عباس سحقا بعدا ؛ يقال سحيق بعيد ، سحقه وأسحقه أبعده .

وقال أحمد بن شبيب بن سعيد الحبطي حدثنا أبي عن يونس ، عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة أنه كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يرد عليّ يومَ القيامة رهطٌ من أصحابي فيحلئون عن الحوض ، فأقول يا رب أصحابي ، فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقرى .)) [2].

1 ص البخاري / أحاديث الحوض/ ح 6096 .
2 المصدر نفسه / 6097 .

وقال : ((حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن ابن المسيب أنه كان يحدث عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يرد على الحوض رجال من أصحابي فيحلئون عنه ، فأقول يا رب أصحابي ، فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى .

وقال شعيب عن الزهري كان أبو هريرة يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم فيجلون ، وقال عقيل فيحلئون ، وقال الزبيدي عن الزهري عن محمد بن علي عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .)) [1].

فبعد هذه الأحاديث هل يبقى لك أدنى شك في كونهم من أصحابه المقربين ؟!

وأما " مسند أحمد " فيعين اثنين ممّن صحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا أعجب ، إذ يقول :

((حدثنا أبو النضر حدثنا المبارك عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ليردن عليّ الحوض رجلان ممن قد صحبني فإذا رأيتهما رفعا لي ، اختلجا دوني . ")) [2].

ماذا فعل هؤلاء الصحابة بعده حتى يطردوا من الكوثر ؟

ولماذا يذكر رسول الله صلى الله عليه و آله هنا بالذات هذه القضية الخطيرة ؟!

إلا إذا كان الأمر مربوط بها أصلاً ، ويحذرُهم لئلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من غيرتهم وحسدهم .

ونحن نعلم من أن الكوثر مرتبط برسول الله ، وذريته ودينه ، كما أكدنا على ذلك ، واعترف به القاصي والداني .

ومرتبط بابنته فاطمة الزهراء عليها السلام ، كما مر عليك .

1 المصدر السابق / 6098 .
2 مسند أحمد / 11968 .

إذاً فهؤلاء فعلوا فعلاً مسوا فيه رسول الله صلى الله عليه وآله في نسله ، وذريته ، ودينه ؛ بل مسّوا فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالخصوص .

فما هو هذا الفعل ؟!

ومِن هذا ترى ما في قول القرطبي :

((فَيُخْتَلَج الْعَبْد مِنْهُمْ فَأَقُول إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي , فَيُقَال إِنَّك لا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدك .

وَالأَخْبَار فِي حَوْضه فِي الْمَوْقِف كَثِيرَة , ذَكَرْنَاهَا فِي كِتَاب " التَّذْكِرَة " .

وَأَنَّ عَلَى أَرْكَانه الأَرْبَعَة خُلَفَاءَهُ الأَرْبَعَة ; رِضْوَان اللَّه عَلَيْهِمْ . وَأَنَّ مَنْ أَبْغَضَ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَمْ يَسْقِهِ الآخَر , وَذَكَرْنَا هُنَاكَ مَنْ يَطَّرِد عَنْهُ . فَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوف عَلَى ذَلِكَ تَأَمَّلَهُ هُنَاكَ .)) [1].

وتجد فيه أنه خلط بين الحديث وحديثه .

وثانياً نسأل ونقول : ما دخل خلفائه بهذا الحوض ، وهو أساساً للرسول ولآل بيته بالخصوص ، على جهة التمليك ، كما ظهر لك من كل ما تقدم ، فهي عطية الله لهم ، وهم الذين يسقون المؤمنين منه ؟!

ولذا قلنا ونقول : لا يذهبنّ بنا الخيال من أن الذين يُطرَدون هم من المسلمين الذين سيأتون بعد ذلك ، كما قال القرطبي أو غيره ؛ ولكن نقول : بل هم من الصحابة ، نعم من الصحابة ، ببيان الصحيحين وغيرهما كما مرّ عليك قبل قليل .

فما ذكره القرطبي عجيب وغريب ، لا يُغني ولا يُسمن من جوع ، بل يصدر المؤمن منه حيران وعطشان ولا يرد الكوثر ، بل قد يرد .....

فللنظر للأحداث :

لو تمعنا بأحداث ما وراء وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لرأينا :

1 راجع تفسير القرطبي .

أن علياً أُقصي من أمور المسلمين ، واختاروا هم الخليفة ، بدون إذن منه ولا من بني هاشم ، على الأقل أولاً وفي بداية الأمر ، والرسول مسجّى على فراش الموت لم يُقبر بعد .

ولرأينا : أن الزهراء ابنته ماتت بعده بفترة قليلة ، وزمن بسيط .

ولكن كيف ماتت ، وهي الشابة التي عمرها كان كعمر الورود ؟!

يُقال بأنها بقت بعد أبيها تبكي ليل نهار .

يُقال بأن الخليفة الثاني عمر قد هجم على بيتها ، هو ومجموعة من الصحابة ، و أراد إحراق الباب ، فقيل له إنّ فيها فاطمة ، فقال " وإن " .

ويُقال بأنه فعل هذا لِيُخرجَ أمير المؤمنين علياً ، والزبير وبقية بني هاشم ، ومَن كان في بيتها حينئذٍ ليبايعوا أبا بكر بالخلافة .

ويُقال بأنّ أرضاً تسمّى " فدكاً " أُخذت منها ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أعطاها إياها .

ويُقال أنها طالبت أبا بكر بالإرث فلم يعطها شيئا .

ثم يُقال بأنها قد دُفِنَت ليلاً بوصية منها ، ولم ترض أن يحضر جنازتها كل هؤلاء .

ولذا ضاع قبرها بين القبور .

ويروي " البخاري " ، و " مسلم " كلٌّ في صحيحه بأنها ماتت وهي واجدة على أبي بكر .

وإن كنت لا تقبل بهذا فهاك نصَّ مسلم : ((حدثني محمد بن رافع أخبرنا حجين حدثنا ليث عن عقيل ، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أنها أخبرته أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى أبي بكرالصديق تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممّا أفاء الله عليه بالمدينة ، وفدك ، وما بقي من خمس خيبر .
فقال أبو بكر إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا نورث ؛ ما تركنا صدقة ؛ إنما يأكل آل محمد صلى الله عليه وسلم في هذا المال .

وإني والله لا أغيّر شيئاً من صدقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئا ، **فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك .**

قال فهجرته ، فلم تكلمه حتى توفيت .

وعاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر .

فلما توفيت دفنها زوجها علي بن أبي طالب ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر .....)) [1] ، [2].

وعوداً على بِدءٍ نقول :

وقد خاطب الباري عزّ وجل نبيه الكريم ورسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم :

" وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً "

وهاهو يبشرهم بالكوثر ، وينذرهم .....

فلاحظ كل هذا واحكم ، واتبع الصراط المستقيم ، من قبل أن تزل الأقدام ، بعد أن اختلط الصبح بالظلام .

وما علينا إلا الإشارة ، ومن الله البشارة .

ولعله لذا ورد في حديث الثقلين بأنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض .

وتتمة للحديث ننقل :

قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه ((قال: [أما. 2] والله يا علي ما هو لي وحدي وإنما هو لي ولك ولمحبيك من بعدي ." [1].

1 صحيح مسلم : كتاب الجهاد والسير باب 16 ؛ في بعضها رقم الحديث : 3304 .

2 صحيح البخاري : 5 / 177 ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ؛ وفي طبعات أخر صحيح البخاري 1549/4 .

وننقل رواية عن بقي ابن مخلد القرطبي في " ما روي في الحوض والكوثر " وهو كتاب جمع فيه أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد ما روي في الحوض والكوثر :

ما روى حذيفة بن أسيد نا دحيم قال نا (إسماعيل بن عبد الله سمويه) نا سعيد بن (سليمان) عن (زيد بن الحسن) القرشي عن معروف عن خربوذ عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أيها الناس (إني فرط لكم وإنكم واردون علي الحوض حوضي عرضه ما بين صنعاء وبصرى وفيه) عدد النجوم (قدحان من ذهب وفضة) وإني سائلكم حين تردون (عليَّ عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما ، السبب الأكبر كتاب الله عز وجل سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا ، وعترتي أهل بيتي ، فإنه قد نبأني العليم الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا عليَّ الحوض [2].

((وفي الخصال عن امير المؤمنين عليه السلام قال : انا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله ومع عترتي على الحوض ، فمن أرادنا فليأخذ بقولنا ، وليعمل عملنا ، فإنّ لكلِ أهلٍ نجيباً ، ولنا نجيب ، ولنا شفاعة ، ولأهل مودّتنا شفاعة ، فتنافسوا في لقائنا على الحوض فإنّا نذود عنه اعدائنا ، ونسقي منه احبّائنا وأوليائنا .

من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها ابداً .

حوضنا فيه مشعّبان ينصبّان من الجنّة أحدهما من تسنيم ، والآخر من معين ، على حافتيه الزّعفران ، وحصاه اللّؤلؤ ، وهو الكوثر .)) [3].
وبهذا يكشف لنا الأمر لكاذا فسره الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام بالشفاعة .

وإن اختلف المفسرون في تفسير الكوثر فقد اتفقوا جميعاً على أنه نهر في الجنة أو حوض فيها وهو المروي عن سيد ولد آدم محمد المصطفى صلى الله عليه و آله وسلم

ولذا قال الرازي في تفسيره : (واختلف المفسرون فى تفسير الكوثر على وجوهٍ : منها أنه نهر فى الجنة ، وهذا هو المشهور المستفيض عند السلف والخلف .) .

1 تفسير فرات الكوفي/ فرات الكوفي (ت القرن 3 هـ .
2 ص88 / " ما روي في الحوض والكوثر " / بقي ابن مخلد القرطبي .
3 تفسير الصافي في تفسير كلام الله الوافي/ الفيض الكاشاني (ت 1090 هـ .) .

والأعجب من هذا إنك تجد حديث الثقلين أيضاً مربوطاً بالحوض في بعض متونه ، وكأنه إشارة لهذا الذي نقوله الآن 1، فالقران والعترة المتلازمان حتى يردا عليه الحوض ،والمتمسك بهما معاً هو الذي يأمن من الضلال ، فالكوثر والطرد هنا بأوضح صورة لِما أحدثوا من تغيير بعده صلى الله عليه وآله ، و كأنه إشارة لتركهم العترة ، وهو ما حدث بالضبط ، فاربط قلبك والمطالب لِتجدَ صدق ما نقول .

فيكون حال الحوض والشرب والكوثر في الدنيا حال ما ورد عن ابي الحسن عليه السلام :

" رجب نهر في الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، مَن صام يوماً من رجب سقاه الله من ذلك النهر . " .

فيكون الأمر هكذا :

الكوثر نهرا أو حوض في الجنة كذا صفته ..... مَن تمسك بولاية محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله ، ويعني أنه تمسك بالكتاب المجيد أيضاً سقاه محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله وسلم من ذلك الحوض أو النهر ، ومَن جحد ولايتهم يُطرد عنه ويُبعد ، كما أخبر بذلك الصادق الأمين .

1 أنظر كتب الأحاديث منها مسند أحمد بن حنبل ((عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إني تارك فيكم الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله ، حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض)) . 3|14 .
وروايته الأخرى : ((عن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : إني أوشك أن أدعى فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله عزّوجلّ ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي . وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فانظروني بم تخلفوني فيهما ؟ » 3|17 .

ما بعد التفسير :

وقد قابلوا سورة الكوثر بعدة سور :

فقالوا : ((إن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن في السورة المتقدمة وَصَفَ الله تعالى المنافق بأمور أربعة :
أولها : البخل وهو المراد من قوله : ((يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ)) [1]
الثاني : ترك الصلاة وهو المراد من قوله : ((ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ)) [2]
الثالث : المراءاة في الصلاة هو المراد من قوله : ((ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءونَ)) [3]
والرابع : المنع من الزكاة وهو المراد من قوله : ((وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ)) [4]

فَذكرَ في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة :
فذكر في مقابلة البخل قوله : { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ } أي إنا أعطيناك الكثير، فأعط أنت الكثير ولا تبخل .
وذكر في مقابلة : { ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ } قوله : { فَصَلِّ } أي دم على الصلاة .
وذكر في مقابلة: { ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءونَ } قوله: { لِرَبِّكَ } ، أي ائت بالصلاة لرضا ربك ، لا لمراءاة الناس .
وذكر في مقابلة: { وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ } قوله: { وَٱنْحَرْ } وأراد به التصدق بلحم الأضاحي .

فاعتبرْ هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله : { إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلأَبْتَرُ } أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دنياه أثر ولا خبر، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل ، وفي الآخرة الثواب الجزيل .)) [5].

وما أروع الفوائد التي ذكرها الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى :

{ إِنَّا أَعْطَيْنَـاكَ ٱلْكَوْثَرَ } ، ولكن ما أسخف الفائدة الرابعة منها حيث قال :

---

1 الماعون : 2،3 .
2 الماعون:5
3 الماعون:6
4 الماعون:7
5 تفسير مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير / الرازي ب 606هـ .

((الفائدة الرابعة : أنه لما قال: { أَعْطَيْنَـاكَ } ، قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأنَّ من مذهب أبي حنيفة أنه يجوز للأجنبي أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قلّ لم يجز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوي ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوي فلساً ، فأعطاه ، سقط حق الرجوع ، فههنا لما قال : { إِنَّا أَعْطَيْنَـاكَ ٱلْكَوْثَرَ } طلب منه الصلاة والنحر ، وفائدته إسقاط حق الرجوع .)) .

وكأن الله تعالى (((يتعبد))) أستغفر الله ربي وأتوب إليه بمذهب أبي حنيفة ، فانظر لهذا لتر العجب ، ولأنه صدر من مثل الرازي فيا للمخازي .

ثم قارن بعضهم بينها وبين السور اللاحقة فضلاً عن السابقة الملاصقة ، و في بعضها ركّة ظاهرة 1.

ولكنهم غفلوا أن يقابلوها بسورة الحمد ، وها نحن نفعل :

ثم وكأنها قسِّمت أقساماً ثلاثة :

منها ما يرجع للرب ، منها ما يرجع للعبد المطيع ، والأخير ما يرجع لغيره .

فالمقطع الأول : " إنا أعطيناك الكوثر "

والثاني : " فصل لربك وانحر "

والثالث : " إن شانئك هو الأبتر "

هذا ترتيب سورة الكوثر .

وهذا ترتيب سورة الحمد :

" الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين "

وهي التي ترجع لله

1 من أرادها فليرجع لتلك التفاسير ، ومنها تفسير الرازي .

ثم :

" إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم "

وهي صفات أهل الصراط

" غير المغضوب عليهم ولا الضالين . "

وهي علامات الكافرين .

فكما أن الصفة الرحمانية والرحيمية هي التي تفيض العطاء وهو ما يربط الدنيا والآخرة ، والرحمة الخاصة والعامة ، كذلك العطاء في سورة الكوثر مرتبط في الدنيا بالزهراء عليها السلام ، وبالآخرة بحوض الكوثر ، ومبين للمؤمنين في الدنيا ، ولمن تشملهم الشفاعة في الآخرة ، ففيها الجهتان .

وهذه ال " إياك نعبد وإياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم "

ظاهرة في : " فصل لربك وانحر "

وهو الذي أمره فلابد أن يعينه ، وهو قد أعطاه الخير الكثير لتتحقق العبودية والإستعانة ، وهو بعينه الصراط المستقيم .

وصفاته يجسدها " إن شانئك هو الأبتر " ، لأنها تشير إلى عدوه ومبغضه .

وهي تعني بلا ريب ولا شك بمناسبة الحكم والموضوع أن محبه هو الفائز ، إذاً هو الصراط المستقيم .

وتعني أن مبغضه هو المغضوب عليه ، فإذاً الضلال يجسده الإنحراف عن محبته ومودته .

بل يظهر كما قدمنا أنه يمثل العالمين ، فراجع ، والحمد لله رب العالمين .

ومن هنا نكتشف بعض ما في قوله تعالى :

" قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى " .

وقوله تعالى : ((قل ما أسألكم عليه من أجر إلا مَن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا)) [1].

ثم قوله عزَّ مِن قائل : ((قل ما سألتكم من أجر ٍ فهو لكم إن أجريَ إلا على الله)) [2].

وما ورد عن رسول الله صلى الله عليه و آله " عن جابر بن عبدالله الأنصاري " أنه (قال : إنّ الله جعَلَ عليّاً وزوجته وأبناءه حُجَجَ الله على خلقه، وهُم أبواب العلم من أُمّتي، مَن اهتدى بهم هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم .) [3].

فسبحان الذي جمع ما في القران في سورة الحمد ، ثم كوّر ما بسورة الحمد في أصغر سورة في القران ، وبذلك أصبحت كوثر القران ، فسبحان الله ، سبحان الله...

1 57 الفرقان .
2 34 سبأ .
3 شواهد التّنزيل /الحافظ الحسكاني الحنفي / 58:1 - 59 .

الفصل الثاني :

ميلاد الزهراء فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم

المشهور عند علماء المسلمين من غير الشيعة أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات .

وهاك أقوالهم :

1 - أبو نعيم في معرفة الصحابي : إن فاطمة كانت أصغر بنات رسول الله سنّاً، ولدت وقريش تبني الكعبة.
2 - أبو الفرج في مقاتل الطالبيين : كان مولد فاطمة قبل النبوة وقريش حينئذ تبني الكعبة.
3 - ابن الأثير في (المختار من مناقب الأخيار).
4 - الطبري في (ذخائر العقبى).
5 - السيوطي في (الثغور الباسمة).
ذكروا مثل قولهما .
ولكن صاحب الاستيعاب ابن عبد البر [1]، و صاحب المستدرك الحاكم [2] قالا إنها ولدت بعد سنة من البعثة .

وأما أقوال علماء الشيعة فهي :

إنها ولدت بعد البعثة بخمس سنوات جاء ذلك :
في الكافي إذ قال الكليني فيه : ولدت بعد النبوة بخمس سنين ، وبعد الإسراء بثلاث سنين ، وقبض النبي ولفاطمة يومئذٍ - ثماني عشرة سنة!..إلخ [3].
وقال ابن شهراشوب في المناقب [4] : ولدت فاطمة بعد النبوة بخمس سنين، وبعد الإسراء بثلاث سنين في العشرين من جمادى الآخرة ، وأقامت مع أبيها بمكة ثماني سنين ثم هاجرت.. الخ.
و في البحار عن الإمام الباقر (عليه السلام): ولدت فاطمة بنت محمد بعد مبعث رسول الله بخمس سنين، وتوفيت ولها ثماني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً [1].

1 في 4:374 .
2 3:176
3 1:457 حديث 10 .
4 3:357

وفي روضة الواعظين للنيسابوري : ولدت فاطمة بعد مبعث النبي بخمس سنين.. الخ [2].

وفي دلائل الإمامة عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: ولدت فاطمة في جمادى الآخرة العشرين منها سنة خمس وأربعين من مولد النبي .

وكذلك ذكر الطبرسي هذا في تاج المواليد [3]؛ والإربلي في كشف الغمة [4] ؛ والشيخ الصدوق في الأمالي [5].

و قد جاء في إقبال الأعمال : قال الشيخ المفيد : في كتاب (حدائق الرياض) : يوم العشرين من جمادى الآخرة كان مولد السيدة فاطمة الزهراء ، سنة اثنتين من المبعث .

وقد نقل قوله كذلك الكفعمي في مصباح المتهجّد [6] ، والعدد القوية [7].

ولذا جاء في مصباح الكفعمي : ولدت في العشرين من جمادى الآخرة يوم الجمعة سنة اثنتين من المبعث ، وقيل سنة خمسٍ من المبعث .

ولكن ابن أبي الثلج البغدادي [8] انفرد في تاريخ الأئمة موافقاً لأهل السنة في أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنوات .

---

1 ج 43 / 9 / ح 16 .
2 143 .
3 21
4 2:75
5 475 حديث 1
6 2:597
7 219 .

8 هو محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل الكاتب ، أبو بكر المعروف بأبن أبي الثلج ، المتوفى سنة 325 هـ.
ذكره الشيخ (ره) في رجاله " ص 502 " ، وقال في فهرسته من جملة ما قال عنه "ص 179" : له كتاب التنزيل في امير المؤمنين (ع)، اخبرنا به احمد بن عبدون عن الدوري ، عن ابن أبي الثلج ؛ وله كتاب البشرى والزلفى وصفة الشيعة وفضلهم ؛ وله كتاب اسماء امير المؤمنين (ع) في كتاب الله ، أخبرني بجميع ذلك ابن عبدون، عن الدوري عنه . انتهى .
وقال النجاشي (ره) : وابو الثلج هو عبد الله بن اسماعيل ، ثقة عين كثير الحديث ، له كتب ، وذكر ما لعله يشير إلى الكتابين المذكورين ، ومنها كتاب تاريخ الائمة (ع) ؛ كتاب أخبار النساء الممدوحات ؛ كتاب أخبار فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ؛ وكتاب من قال بالتفضيل من الصحابة وغيرهم .
وقال ابن النديم في الفهرست " ص 326 ، ط مصر ، في آخر الفن السادس من المقالة السادسة " : أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد ابن أبي الثلج الكاتب خاصي عامي، والتشيع اغلب عليه ، وله رواية كثيرة من روايات العامة ، وتصنيفات في هذا المعنى ، وكان دينا ورعا فاضلا ، وله من الكتب كتاب السنن والاداب على مذاهب العامة ، كتاب فضائل الصحابة ، كتاب الاختيار من الاسانيد .

القول الفصل :

ونرجح قول أصحابنا لعدة أمور :

1 : مرويات الأصحاب جاءت عن أهل البيت عليهم السلام ، وهذه الأمور كما يعلم ذلك العالم من الناس والجاهل من أن أصحاب البيت أدرى بها ، فأنت أدرى مِن غيرك بتاريخ ولادتك وولادة أولادك أو جدك من البعيد .

2 : هناك دلائل وشواهد عدة على ذلك منها :

من كتاب الله المجيد :

قال تعالى ((ولسوف يُعطيك ربك فترضى)) .

أنزلت هذه بعد البعثة أم قبلها ؟!

وهذا من الأسئلة البديهية الجواب .

وقال تعالى بعد ذلك ((إنا أعطيناك الكوثر))

فالعطية جاءت بعدها .

هذا طبعاً على رأي من يرى من أن هذا الإعطاء الأخير هو الذي أشار إليه الباري قبل ذلك في سورة " الضحى " ، وحصره به ليس رأينا .

ومن المتفق عليه إنه إشارة للزهراء البتول عليها السلام ، فعلى أقل تقدير فإنّ ذرية محمد صلى الله عليه وآله منها ، وهي وهم أولى من غيرهم بأن يكونوا من الكوثر ، إذاً فهيَ مولودة بعد البعثة ، كما نسلها وذريتها .

قال تعالى : ((فصل لربك وانحر)) .

رتب الصلاة والنحر على إعطائه الكوثر ، فالأمر بالصلاة وبالنحر جاء مرتباً بلا فاصلة بعد الإعطاء لِمقام الفاء الذي يفيد الترتيب بلا فاصلة .

فحينئذٍ من حقنا أن نسئل : متى وجبت الصلاة ؟!

إنها وجبت في المعراج ، بحدود السنة الخامسة للهجرة .

فلنرجع لسورة النجم التي فيها خبر المعراج :

ما هو زمن نزول سورة النجم ؟!

التحقيق يدل على أنها نزلت حوالي السنة الخامسة من البعثة الشريفة .

فمن واقعة الغرانيق المفتعلة والتعليق عليها ، وقد ركزت أغلب كتب التاريخ والحديث عليها يظهر أن سورة النجم التي فيها الآيات التي أضافوا لها تلك الغرانيق والأكاذيب الباطلة قد قرأها الرسول في حدود السنة الخامسة للبعثة . أي أنها نزلت عندئذ أو قبلها بقليل .

وفي تلك السورة جاء ذِكر (المعراج) .

فالمعراج يقيناً قد وقع في حدود زمان نزولها ، وفيه فرضت الصلاة .

من هنا نستأنس من أن إعطاء الكوثر له كان قبل ذلك بقليل ، فيكون مجئ الزهراء عليها السلام بهذه الحدود .

لأن الكل بهذا سيكون متناسقاً تناسقاً عجيباً .

فالوعد أولاً ، ثم الإعطاء ثانياً ، وفي ظرفه وجوب الصلاة ثالثاً .

وقد نزلت : { ولسوف يعطيك ربك فترضى } .

ثم جاءت : { إنا أعطيناك الكوثر }

و إذا رجعنا إلى : ترتيب كلمات هذه السور فى المصحف وهو نفس ترتيبها فى النزول : لرأينا أن كلمات القلم تأتي وبعدها الضحى ، ثم الكوثر [1].

قال تعالى : (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3))[2] فهذا الأجر غير المقطوع المؤكد بأداة التوكيد وباللام وبالحصر ، هل أعطاه لحبيبه صلى الله عليه وآله في حياته أم لا ؟!

وقد قال بعدها وهو العليم الحكيم فى سورة الضحى : (وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) [3].
أكد عندها الوعد ، باللام وسوف ، فهو وعد مؤكد من الله بالإعطاء .

و قال بعدها فى سورة الكوثر : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) [4].

وهو كما نرى عطاء ، فهناك وعد بالعطاء ، وهنا تحقق العطاء .

وهناك أجر غير مقطوع ، وهنا خير كثير لا حدود له .

والوعد السابق وتحقق اللاحق يكشف أنه ليس مرتبطاً بالمستقبل المحض ، وإنه من باب النتيجة المقطوعة جاء بالفعل الماضي ليؤكد التحقق المستقبلي ، بل هو آيات بينات من أنه لم يكن فكان ، وهو مربوط به شخصياً ، متعلق بنسله بدلالة اللمز الذي لمزه ذاك الشانئ بقرينة الآية الأخيرة ، كما أن هذا النسل يجب أن يرتبط بالصلاة والنحر المشار إليهما في السورة أي يرتبط بالإسلام العملي والعقائدي بدلالة الصلاة و تقييدها (لربك) ، وهو رب محمد بعينه الذي يستحق الصلاة ، مع إنه رب الكون كله ، وكأنه إشارة إلى أنه ما كان يُعبد بحقيقة العبودية إلا بجهود عبده محمد صلى الله عليه وآله ، العائد له الفضل بتربيته فهو تكريم لنبينا صلى الللله عليه وآله ما بعده تكريم ، وقد عَرّفَ نفسَهُ به ، فما أعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم !!!

وهذا الإعطاء بالتوكيد الأعلى قد ارتبط بالدنيا وبالآخرة فهو دنيوي أخروي إذا صح التعبير .

1 أنظر الزركشي/ البرهان / ج1 / 193 .
2 سورة القلم .
3 سورة الضحى .
4 سورة الكوثر .

فإذاً في أيام نزول سورة القلم لم يكن قد وصل العطاء بعد ، وكذا في أيام سورة الضحى ، وبعدها جاء الكوثر .

رُزِق محمدٌ بفاطمة صلى الله عليهما وآلهما الطيبين الطاهرين ، حينما عُرِج به إلى السماء .
لِيُعطى هنا فاطمة ، ويكون هناك الكوثر .
وبذا نكتشف بأي شيءٍ كان الكوثر مرتبطاً .
وتبدأخيوط معرفة مَن سيُذاد عنه .
ولماذا رسول الله صلى الله عليه وآله ذكر الحوض هنا ، وأخبر بما لا مجال للشك فيه بأنه سيطرد بعض أصحابه يوم القيامة عنه ، وماذا يعني هذا .
فإنهم ما أحدثوا حدثاً بعده إلا أنهم أبعدوا علياً من الحكم ، وبهذا أبعدوا آل البيت عليهم السلام عنه كذلك .
وبذا تجرأ من تجرأ بعد سنين على قتال علي .
وتجرأ معاوية أن يضع شروط الحسن تحت قدميه ، و أن يقتل يزيد الحسين ، وأن يصل كل مَن هبّ ودبّ ليحكم رقاب المسلمين .
ومَن هما الحسن والحسين ؟!
هما ذرية الرسول ، لأنهما ابنا فاطمة .
والكوثر وفاطمة مرتبطان ، لا يمكن إنفصالهما .
من هنا نكتشف لماذا ذكر الحوضَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندها وفصّل ، ونعرف عين اليقين مَن هم الذين سيُذادون عن الكوثر يوم القيامة .
ونعرف بذلك أيضاً كمية من الروايات التي وضعت بعد ذلك لكي يختلط الأمر على الناس .
فمن ابتعد عن علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام في الدنيا سيُردُّ إليه عمله في الآخرة فيُبعد عنه .
ومَن غيّر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله فهو الذي يُذاد عنه ولا يُسقى منه .
وبهذا اتفقت الروايات والقران وهما متفقان . وبدأ مِن هنا ظهور الحق لذي عينين .

وقرينة أخرى :

((أخبرنا خلف بن قاسم حدثنا علي بن محمد بن إسماعيل حدثنا محمد بن إسحاق السراج حدثنا الحسن بن يزيد الطحان حدثنا عبد السلام بن حرب عن أبي الجحاف عن جميع بن عمير قال: دخلت على عائشة فسألت: أي الناس كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: " فاطمة .

قلت : فمن الرجال ؟ قالت: " زوجها إن كان ما علمته صواماً .

قال: وأخبرني إبراهيم بن سعيد الجوهري قال: حدثنا شاذان عن جعفر الأحمر عن عبد الله بن عطاء عن ابن بريدة عن أبيه قال : كان أحب النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة ومن الرجال علي بن أبي طالب .)) [1].

و تحت عنوان ((234 : أن أحب أهله إليه صلى اللّه عليه وسلم فاطمة رضي اللّه عنها .

قال العزيزي في شرح الجامع ثبت ذلك في عدة أحاديث أفاد مجموعها التواتر المعنوي .

وقال في التيسير في شرح حديث " أحب أهل بيتي إلي الحسن والحسين " ما نصه : والحق أن فاطمة لها الأحبية المطلقة ، ثبت ذلك في عدة أحاديث ، أفاد مجموعها التواتر المعنوي ، وما عداها فعلى معنى من ، أو اختلاف الجهة اهـ .

وقد أخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه الطيالسي والطبراني والديلمي وغيرهم عن أسامة بن زيد مرفوعاً : " أحب أهلي إليَّ فاطمة " قال في التيسير إسناده صحيح .)) [2].

وإذا سئلنا مَن سيدة نساء العالمين ؟

فسيجيبك الخاص والعام إنها الزهراء البتول فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

1 الاستيعاب في تمييز الأصحاب ./ ج2 / كتاب النساء / باب الفاء / فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين على أبيها وعليها السلام .
2 نظم المتناثر من الحديث التواتر / من كتاب الإيمان إلى كتاب المناقب .

وهذا ما اتفق عليه كل المسلمين إلا مَن شذّ منهم .

قال علامة العراق في زمنه من علماء الجمهور : ((والذي أميل إليه أنّ فاطمة البتول أفضل النساء المتقدّمات والمتأخّرات مِن حيث أنّها بضعة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، بل ومن حيثيّات أُخَر أيضاً .)) [1].
وقال العلامة السيّد شرف الدين العاملي : ((تفضيلها على مريم عليها السّلام أمرٌ مفروغ عنه عند أئمّة العترة الطاهرة وأوليائهم من الإماميّة وغيره .)) .

ثم نقل عن يوسف النّبهاني صاحب كتاب الشرف المؤبد قوله ((صرّح بأفضليّتها على سائر النّساء حتّى السيّدة مريم كثيرٌ من محقّقي أهل السنّة والجماعة : كالتقيّ السُّبكي ، والجلال السّيوطي ، والبدر ، والزّركشي ، والتقيّ المقريزي ، وابن أبي داود ، والمناوي .)) [2].

وقال العاملي : ((وهذا هو الّذي صرّح به السيّد أحمد زيني دحلان مفتي الشّافعيّة ، ونقله عن عدّة من أعلامهم ، وذلك حيث أورد تزويج فاطمة بعليّ في السّيرة النبوية .) [3].

وفي الزهراء خصلتان لا يشركهما أحد بهما وهما ماذكرنا وإنّ ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله منها .

و إذا كان كذلك ، و القران كان ينزل في المناسبات المختلفة ، يطمئنه تارة وتارة يبين له أو يبشره ، وهذا لا يختلف فيه إثنان .

فإذا رُزق بسيدة نساء العالمين ، وسبب بقاء نسله وشخصه في هذا الوجود ، أتراه لا يُعلمه بها ، ولا يُبشره ؟!

ففي الحديث عن المفضل قال: قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): أخبرني عن قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في فاطمة انها سيدة نساء العالمين أهي سيدة نساء عالمها ؟

فقال (عليه السلام) : « ذاك مريم كانت سيدة نساء عالمها، وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.»[4].

1 أنظر تفسير روح المعاني 155:3 .
2 الشّرف المؤبّد / فضائل الزّهراء / ص 59 .
3 هامش النّص والاجتهاد / 114 / المورد 8 .
4 معاني الأخبار: ص107 .

وأن كان العامة قد اختلفوا في المقصود ، ولا يهمنا ذلك ، وذلك لعلو شأنها حتى على قولهم ، فهي سيدة نساء زمانها ، أو سيدة نساء أهل الجنة من أمته ، وهي أفضل الأمم أو من الجميع .

إذ :

قال الإمام الذهبي : سيدة نساء العالمين في زمانها .

وعن ابن عباس كما حدث به المحدث : النووي :
أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.) [1]. وإسناده حسن كما ذكروا .
وقد جاء في السلسلة الصحيحة للألباني أن رجاله ثقات [2].
وذكره الألباني كذلك في صحيح الجامع .

وذكره عن عبدالله بن عباس كذلك المحدث الوادعي [3]. وجاء عن البخاري : قال النبي « ص » : فاطمة « ع » سيدة نساء اهل الجنة [4].

وأما صاحب المستدرك فينقل النص هكذا : (عن عائشة ، أن النبي « ص » قال في مرضه الذي توفي فيه : يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين وسيدة نساء هذه الأمة وسيدة نساء المؤمنين) [5].

وهكذا روى الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: حدثتني فاطمة قالت : أسر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن جبرئيل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا قد حضر أجلي ، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي ونعم السلف أنا لك ".

قالت : فبكيت ثم قال : " ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة ، أو نساء العالمين " ، فضحكت [1].

---

1 تهذيب الأسماء واللغات / 341/2 .
2 السلسلة الصحيحة / الرقم: 1508 .
3 الصحيح المسند / 590 .
وفي الصحيح من دلائل النبوة / 474 .
وشبهه جاء عن مسند أحمد : 232/4 .
4 البخاري ج 2 ص 185 و ص 189// كما جاء ذلك في سنن الترمذي ص 540.
5 مستدرك الحاكم ج3 ص 156 .

واخرج الطبراني بإسناد على شرط الشيخين عن عائشة رضي الله عنها قالت : (ما رأيت أحدا قط أفضل من فاطمة غير أبيها .) .

وجاء عن صاحب الاستيعاب قريب منه ، حيث قال : ((وحدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا عثمان بن عمر عن اسرائيل عن ميسرة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ؛ وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ، ورحب بها ، كما كانت تصنع هي به صلى الله عليه وسلم .

قال : وحدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن يحيى بن عبادة عن أبيه عن عائشة قالت : ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة من فاطمة إلا أن يكون الذي ولدها صلى الله عليه وسلم .)) [2].

وهكذا ذهب كثير من العلماء المحققين ، ومنهم البلقيني والسهيلي ، وسئل عن ذلك ابن داود ، فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فاطمة بضعة مني ، ولا اعدل ببضعة رسول الله احد .) . وبعضهم استشهد بقضية ابن لبابة حين ربط نفسه في المسجد ، وحلف ان لا يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاءت فاطمة عليها السلام لتحله فأبى من اجل قسمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما فاطمة بضعة مني ، وحلته بالفعل ولم يحنث .
و هذا ما ذهب إليه الآلوسي في تفسيره روح المعاني حيث قال ب((أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث انها بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ومن حيثيّات أُخَر أيضاً .)) [3].

وقال السيّد شرف الدين : تفضيلها على مريم عليها السّلام أمرٌ مفروغ عنه عند أئمّة العترة الطاهرة وأوليائهم من الإماميّة وغيرهم ، وصرّح بأفضليّتها على سائر النّساء حتّى السيّدة مريم كثيرٌ من محقّقي أهل السنّة والجماعة ...)) .

منهم : التقيّ السُّبكي، والجلال السّيوطي، والبدر، والزّركشي، والتقيّ المقريزي، وابن أبي داود، والمناوي [4].

---

1 الاستيعاب في تمييز الأصحاب ./ ج2 / كتاب النساء / باب الفاء / فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين على أبيها وعليها السلام .
2 الاستيعاب في تمييز الأصحاب ./ ج2 / كتاب النساء / باب الفاء / فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين على أبيها وعليها السلام .
3 تفسير (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) / 155:3 .
4 أنظر : النّبهاني فضائل الزّهراء ص 59 ـ من كتابه الشّرف المؤبّد .

وهذا هو الّذي صرّح به السيّد أحمد زيني دحلان مفتي الشّافعيّة ونقله عن عدّة من أعلامهم ، وذلك حيث أورد تزويج فاطمة بعليّ في السّيرة النبوية [1].

فهي سيدة النساء بنص أحاديث أبيها صلى الله عليه وآله وسلم :

فهي سيدة نساء العالمين ،

وسيدة نساء المؤمنين ،

وسيدة نساء هذه الأمة ،

وسيدة نساء أهل الجنة ،

كل ذلك بأحاديث صحيحة قد اتفق عليها أهل الحديث جاءت من سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد اختارها الله تعالى لتكون أم ريحانتي النبي صلى الله عليه و آله وسلم و سيدي شباب أهل الجنة من الخلق أجمعين الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ،

وقد زوجها الله في سمائه أمير المؤمنين وسيد الوصيين الإمام علي عليه السلام ، قبل أن يزوجها أبوها صلى الله عليه و آله وسلم في أرضه .

ومنها المهدي المبشر به آخر الزمان ، وكفى .

هذا ما اتفق عليه جميع المسلمين لا يشذ منهم واحد .

بالإضافة لكونها أم الأئمة المعصومين سادات الخلق أجمعين .

فضلاً عن كونها قد حفظت ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

و إذا جاءت الشبهة لأحدهم من تفسيره لقوله تعالى في حق مريم :

1 أنظر هامش النّص والاجتهاد 114 ـ المورد 8 .

((وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ))

فلا يبعد في ذلك إذ سيواجهه قوله تعالى في موضع آخر : (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ) وهو خطاب الباري لعبده المرسل موسى بن عمران على نبينا وآله وعليه السلام ، وهو يوازي (وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ) فهل يفضِّل موسى بن عمران بهذا على نبينا الكريم محمد صلى الله عليه و آله وسلم وعلى جميع أنبياء الله ورسله ؟

وقوله تعالى وهو خطاب لبني إسرائيل : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ))

وقال تعالى :(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

فهل يحكم بأفضلية بني إسرائيل على أمة محمد صلى الله عليه و آله وهو ظاهر الآيتين الكريمتين ؟

ما لكم كيف تحكمون ؟

إذ قامت الأدلة على أفضلية هذه الأمة وأفضلية نبينا صلى الله عليه وآله وسلم وبهما أفضلية بضعته الطاهرة فاطمة الزهراء بنت محمد عليهما و آلهما السلام .

ولذا قال ابن كثير في البداية والنهاية ، عندما تعرض لمثلها (ان إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى ، وان محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل منهما ، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها ، وأكثر عددا وأفضل علما وازكي عملا من بني إسرائيل وغيرهم .) .

والحديث ربما يطول لأجل ما وضعه بعضهم على أعينهم من غشاوة وامتدت على قلوبهم فهم لا يبصرون .

و إلا لو نظرت لقوله تعالى خطاباً لمريم :

((وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ))

وقوله تعالى في مقام الزهراء :

((إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا))

الشاملة بمضمونها الزهراء عليه السلام .

لوجدت الفارق ، فضلاً عن الآيات الأخر المتفق على نزولها بحقها وزوجها و أولادها وأبيها صلى الله عليه و آله وسلم ، إلى هذه السورة المباركة التي نحن بصدد الوقوف على بعض معانيها العظيمة وإشاراتها .

منها :

1 : تم الإخبار في تلك بواسطة الملائكة ، وهنا تم الخطاب المباشر بين الخالق والمخلوق ، لأنه كلام الله كما نعلم وللإعتناء الخاص بهم جاء بلفظ الجلالة الجامع للأسماء الحسنى كلها .

2 : نوديت باسمها ، أما هؤلاء فنودوا بنسبتهم لبيت الله تعالى ، والنسبة لِعظيمٍ تبين عظمة المنسوب .

3 : وجئ بالفعل مجرداً و إن وكد بإن ، وأما آية التطهير فجئ بالفعل الذي أُكِّد بالمصدر ، بعد أن تم الإخبار و التوكيد بإذهاب الرجس المستمر بالفعل المضارع بعد أن حصر الله تعالى إرادته به . وهو من أعظم التوكيد وأبينه .

ودفعاً لقيل سنذكره لاحقاً نبين بعض أعماق آية التطهير فقد جاء بالإرادة بعد الحصر لتوكيدها ، وجاء بالفعل المضارع ليدل على استمرارها وبقائها ، وهو إذا أراد فعل ، فهو أمر مقضي ومنتهى منه ولكن لتوكيده واستمراره أتى بكل ذلك ، حتى إنه استعمل الفعل المضارع في الإذهاب للرجس المؤكد باللام ، وفي التطهير المؤكد بالمصدر ، وأما في ما آية مريم فقد استعمل الإخبار فقط المؤكد بإنّ دفعاً لِشبهٍ أثيرت كما يقتضي الأسلوب العربي ذلك .

وفرق آخر ذُكر ولكن نركز عليه فالمستعمل قي آية مريم الفعل الماضي والمستعمل في آية التطهير الفعل المضارع وهو يدل على الإستمرار فهو أوكد بالثبوت فلاحظ .

كل ذلك ذكرناه لأجل رد شبهة ربما ستثار من أن آية مريم فيها التطهير قد حدث لوجود الفعل الماضي ، وأما في آية التطهير فالله يريد ولكنه هل سيحدث أم لا فمسكوت عنه ، فانتبه .

وهذا غيض من فيض .

وهي أعظم بشارة له روحي فداه صلى الله عليه وآله وسلم .

ولو قال قائل من القوم إنه لم يفعل في مواقف أخر كذلك ، فمالك تخلط الأمر ؟

أقول صحيح هذا في الجملة ، ولكن نقول لو صلح أمر لكي يكون كذلك فلماذا نصرفه عنه لغيره الذي هو أضعف دلالة و أشد بعدا ؟

والسورة بالدلالات الواضحات والآيات البينات تشير إلى هذا ، فماذا بعد ذلك ؟

فمن هنا ومن تلك تبين لنا أنها تشير إلى الزهراء بل هي هي .

ومنها رجحنا القول بتاريخ ولادتها ، وإن كان هذا التاريخ هو المرجح أصلا في رواياتنا ، وإن كان مرجوحاً في روايات القوم كما مر عليك .

روايات ودلائل :

ومن نافلة القول أن نختم هذه الدراسة بروايات تاريخية لتتميم الفائدة وتعميمها :

قال صاحب الميزان : ((والجملة لاتخلو من دلالة على ان ولد فاطمة عليها السلام ذريته (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهذا في نفسه من ملاحم القرآن فقد كثّر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر ، مع ما نزل عليهم من النوائب وافنى جموعهم من المقاتل الذريعة .)) .

وهذا شبيه بما أفاده الفخرالرازي في تفسيره حيث قال ((الكوثر أولاده قالوا : لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت ، ثم العالم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به ، ثم أنظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم .)) [1].

في العاشر من البحار : عن عامر الشعبي أنه قال :

بعث إليَّ الحجاج ذات ليلة فخشيت فقمت فتوضأْت وأوصيت، ثم دخلت عليه، فنظرت فإذا نطع منشور والسيف مسلول، فسلَّمت عليه فردَّ عليَّ السلام فقال: لا تخف فقد أمنتك الليلة وغداً إلى الظهر، وأجلسني عنده ثم أشار فأُتي برجل مقيَّد بالكبول والأغلال ، فوضعوه بين يديه ، فقال : إن هذا الشيخ يقول : إنَّ الحسن والحسين كانا ابني رسول الله ، ليأْتيني بحجة من القرآن ، وإلاَّ لأضربنَّ عنقه .
فقلت: يجب أن تحلَّ قيده ، فإنَّه إذا احتج فإنَّه لا محالة يذهب ،وإن لم يحتج فإنَّ السيف لا يقطع هذا الحديد .
فحلّوا قيوده وكبوله ، فنظرت فإذا هو سعيد بن جبير ، فحزنت بذلك ، وقلت : كيف يجد حُجَّةً على ذلك من القرآن ؟ فقال الحجاج : ائتني بحجة من القرآن على ما ادعيت وإلاَّ أضرب عنقك .
فقال له : انتظر .
فسكت ساعة ، ثم قال له مثل ذلك . فقال : انتظر. فسكت ساعة ، ثم قال له مثل ذلك فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال : ((ووهبنا له إسحاق ويعقوب.. إلى قوله : وكذلك نجزي

1 القول الثالث من الأقوال التي قيلت في الكوثر . / الفخر الرازي .

المحسنين (ثم سكت وقال للحجاج : اقرأْ ما بعده . فقرأ : (وزكريا ويحيى وعيسى) ، [1] فقال سعيد : كيف يليق هاهنا عيسى ؟ قال : إنَّه كان من ذريته .

قال: إن كان عيسى من ذرية إبراهيم ولم يكن له أب بل كان ابن ابنته فنُسب إليه مع بُعده فالحسن والحسين أولى أن يُنسبا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع قربهما منه .

فأمر له بعشرة آلاف دينار ، وأمر أن يحملوه إلى داره وأذن له في الرجوع .

قال الشعبي : فلما أصبحت قلت في نفسي : قد وجب عليَّ أن آتي هذا الشيخ فأتعلَّم منه معاني القرآن ، لأني كنت أظن أني أعرفها ، فإذا أنا لا أعرفها .

فأتيته فإذا هو في المسجد ، وتلك الدنانير بين يديه ، يفرِّقها عشراً عشراً ، ويتصدق بها ، ثم قال : هذا كله ببركة الحسن والحسين (عليهما السلام) لئن أغممنا واحداً لقد أفرحنا ألفاً ، وأرضينا الله ورسوله (صلى الله عليه وآله).

وروى شيخنا المجلسي في البحار أيضاً : عن الاحتجاج وتفسير علي بن إبراهيم عن أبي الجارود عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال : قال لي أبو جعفر : يا أبا الجارود ما يقولون في الحسن والحسين (عليهما السلام) ؟

قلت : ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال : فبأي شيء احتججتم عليهم ؟

قلت: يقول الله عز وجل في عيسى ابن مريم: ((ومن ذريته داود وسليمان إلى قوله وكذلك نجزي المحسنين)) وجعل عيسى من ذرية إبراهيم .

قال: فأي شيء قالوا لكم؟

قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الوالد ولا يكون من الصلب .

قال: فبأي شيء احتججتم عليهم ؟

قال : قلت : احتججنا عليهم بقول الله تعالى: (قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم) .

قال: فأي شيء قالوا لكم ؟

قلت : قالوا : قد يكون في كلام العرب ابني رجل واحد فيقول : أبناءنا ، وإنما هما ابن واحد .

قال : فقال أبو جعفر (عليه السلام) : والله يا أبا الجارود لأعطينَّكها من كتاب الله آية تسمّى لصلب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يردّها إلاَّ كافر.

---

1 ((ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاّ هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين)) سورة الأنعام ؛ الآية : 85 .

قال: قلت: جعلت فداك وأين؟

قال : حيث قال الله : (حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم إلى أن تنتهي إلى قوله : وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ، فسلهم يا أبا الجارود هل حلَّ لرسول الله (صلى الله عليه وآله) نكاح حليلتيهما ؟ (أي زوجة الحسن والحسين) .

فإن قالوا: نعم، فكذبوا والله وفجروا ، وإن قالوا : لا ، فهما والله ابناه لصلبه ، وما حرمتا عليه إلاّ للصلب .

ولقد جرى حوار بين هارون الرشيد والإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام (ذكره شيخنا المجلسي في البحار نقلاً عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام) :

أن هارون الرشيد قال للإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) : لِمَ جوَّزتم للعامة والخاصة أن ينسبوكم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويقولون لكم يا بني رسول الله ، وأنتم بنو علي، وإنما ينسب المرء إلى أبيه ، وفاطمة إنما هي وعاء والنبي (صلى الله عليه وآله) جدّكم من قِبَل أُمِّكم ؟؟

فقال الإمام : لو أنّ النبي نُشر فخطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه ؟

قال الرشيد: سبحان الله! ولِمَ لا أُجيبهُ؟ بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك.

فقال الإمام: ولكنه (صلى الله عليه وآله) لا يخطب إليَّ ولا أزوِّجه .

قال الرشيد: ولِمَ ؟

قال الإمام : لأني ولدني ولم يلدك.

قال الرشيد : أحسنت يا موسى.

ثم قال الرشيد : كيف قلتم إنا ذرية النبي، والنبي (صلى الله عليه وآله) لم يعقّب ؟ وإنما العقب للذكر ، لا للأنثى ، وأنتم ولد الابنة ، ولا يكون لها عقب ؟

فاعتذر الإمام عن الإجابة على هذا السؤال المحرج ، وطلب من الرشيد إعفاءه عن الجواب رعاية للتقية .

فقال الرشيد : لا، أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي ، وأنت يا موسى يعسوبهم وإمام زمانهم ، كذا أنهي إلي ، ولست أعفيك في كل ما أسألك حتى تأْتيني فيه بحجة من كتاب الله ، فأنتم تدَّعون - معشر وُلد علي - أنَّه لا يسقط عنكم منه شيء ألِفٌ ولا واو إلاَّ وتأْويله عندكم ، واحتججتم بقوله عز وجل: (ما فرَّطنا في الكتاب من شيء) ، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم .

فقال الإمام : تأذن لي في الجواب؟

قال الرشيد : هات.

قال الإمام : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى) ، مَن أبو عيسى ؟ قال الرشيد : ليس لعيسى أب .
قال الإمام : إنما ألحقناه بذراري الأنبياء (عليهم السلام) من طريق مريم (عليها السلام) وكذلك أُلحقنا بذراري النبي (صلى الله عليه وآله) من قَبِل أمِّنا فاطمة (عليها السلام).. إلى آخر الحديث.

هذه هي الآيات التي استدل بها الأئمة (عليهم السلام) حول انتسابهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن طريق السيدة فاطمة الزهراء، وأما الأحاديث التي تصرّح بهذا المعنى فكثيرة جداً، ونكتفي هنا بما يلي:

عن ابن عباس قال: كنت أنا وأبي: العباس بن عبد المطلب جالسين عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ دخل علي بن أبي طالب فسلّم، فردّ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبشّ به، فقال العباس: يا رسول الله أتحبّ هذا؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله): يا عمَّ رسول الله! واللهِ اللهُ أشدُّ حُبَّاً له مني، إنَّ الله جعل ذرية كل نبي في صلبه، وجعل ذريتي في صلب هذا [1].

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إنَّ الله عز وجل جعل ذرية كل نبي في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي [2]. [3] .

وذكر النسائي في كتاب (خصائص أمير المؤمنين) عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك .

وروى أيضاً عن أسامة قال : طرقت باب رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليلة لبعض الحاجة ، فخرج وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو؟ فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ فكشفه فإذا

1 الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد ج1ص316) .
2 ورواه الخوارزمي في (المناقب ص229)
3 ورواه محب الدين الطبري في (ذخائر العقبى)
والحموينى في (فرائد السمطين)
والذهبي في (ميزان الاعتدال)
وابن حجر في (الصواعق المحرقة ص74)
والمتقي الهندي في (منتخب كنز العمال)
والزرقاني في (شرح المواهب اللدنية)
والقندوزي في (ينابيع المودة ص183)

هو الحسن والحسين على وركيه ، فقال: هذان ابناي ، وابنا بنتي ، اللهم إنك تعلم أني أحبُّهما فأحبهما.

والأحاديث التي تصرح بأن الحسن والحسين (عليهما السلام) كانا ابني رسول الله (صلى الله عليه وآله) كثيرة جداً، وجاء بعض الجهلاء يتفلسف ليُنكر أبوّة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لولديه: الحسن والحسين (عليهما السلام) مستدلاً بقوله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم). فيزعم الجاهل أنَّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليس بأب أحد، مع العلم أن الآية نزلت حول نفي نسب زيد الذي تبنَّاه رسول الله (صلى الله عليه وآله (ثم زوَّجه زينب بنت جحش ثمّ طلّقها زيد وتزوجها النبي (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً) ، ففي هذا بيان أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليس بأب لزيد حتى تحرم عليه زوجته ، فإن تحريم زوجة الابن معلق بثبوت النسب ، فمن لا نسب له لا حرمة لامرأته ، ولهذا أشار إليهم فقال :(من رجالكم) ، وقد ولد لرسول الله (صلى الله عليه وآله) أولاد ذكور إبراهيم والقاسم والطيب والمطهر ، فكان (صلى الله عليه وآله) أباهم ، وقد صح وثبت أنه (صلى الله عليه وآله) قال للحسن (عليه السلام) : إن ابني هذا سيد . وقال أيضاً : إن كل بني بنت ينسبون إلى أبيهم إلاَّ أولاد فاطمة فإني أنا أبوهم .

وقيل : أراد بقوله : (من رجالكم) البالغين من رجال ذلك الوقت ولم يكن أحد من أبنائه رجلاً في ذلك الوقت.)) [1].

1 أنظر فاطمة من المهد إلى اللحد / السيد كاظم القزويني .

الخاتمة :

في كلمة واحدة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بضعته الزهراء البتول عليها السلام :

" فاطمة أم أبيها "

تمهيد :

الكلام الفصيح :

يرتبط الكلام الفصيح بارتباطين أحدهما باللفظ ، والآخر بالمعنى ، وفي حالة ثالثة بهما معاً .

أما اللفظ ففيه شروط : أولاً : خلو الكلمة من الغرابة .

ثانياً : خلوها من تنافر الحروف .

ثالثاً : خلوها من مخالفة القياس اللغوي .

رابعاً : خلو الكلمة من الكراهة في السمع .

((وعلامة اللفظة في فصاحتها أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرًا))[1]

هذه في الكلمة ؛

وأما في الكلام : فيجب ألا يكون فيه كل ما يقدح بإفصاح اللسان به ككثرة الإضافات مثلاً ، أو بالإخلال بشروط اللفظ الذي مر قبل قليل بالألفاظ المستعملة فيه.

وأما المعنى : فشرطه خلو الكلام من التعقيد.

1 القزويني: الإيضاح ص74.

بمعنىً آخر يجب أن تكون الكلمة سهلة لا تعسر على النطق ، و ألا تكون وحشية أي غير مستعملة في كلام البلغاء والفصحاء ، و ألا تكون كذلك إلا أنها غامضة المعنى بعيدة عنه ، أو أن تجتمع كلمات ليس فيها هذه الصفة لكن عند اجتماعها تولد ذلك ، أو تربك المعنى إن لم يكن اللفظ مربكاً .

فالكلام الفصيح هو الكلام السهل الألفاظ ، الواضح العبارة فالمعنى ، أي ليس فيه تعقيد في تركيب الألفاظ وترتيبها ليؤدي إلى الغموض ؛ و يُقصد به أن يكون واضح المعنى لا للعامة ممن لا ممارسة لهم بالكلام الفصيح ، بل للخاصة من أهل اللسان المطلعين على الكلام .

ونفصح أكثر بنقل المعنى اللغوي للفصاحة :

جاء في لسان العرب لابن منظور : " الفصاحة البيان ، فصح الرجل فصاحة فهو فصيح من قوم فصحاء وفِصاح وفُصُح ... والفصيح في اللغة المنطلق اللسان في القول الذي يعرف جيد الكلام من رديئه " [1].

ثم نشفع ذلك بذكر المصطلح الخاص عند الخواص : يقول عبد القاهر الجرجاني [2]: " وان الذي هو معنى الفصاحة في أصل اللغة هو الإبانة عن المعنى بدلالة قولهم ، فصيح وأعجم ، وقولهم أفصح الأعجمي ، وفصح اللسان ، وأفصح الرجل بكذا إذا صرّح به " [3].

وفي الإيضاح للخطيب القزويني : " هي في اللغة تنبئ التزاماً عن الظهور والإبانة ... يقال فصح الأعجمي ، وأفصح إذا انطلق لسانة وخلصت لغته من اللكنة ، وجاد فلم يلحن ، وأفصح به أي صرّح به ، وفصح اللبن فهو فصيح ، إذا أخذت رغوته وذهب لباؤه " [4].

وأما المتحدث الفصيح : فهو القادرعلى التعبير بكلمات فصيحة ، وبكلام يوصف بالفصاحة بحسب الشروط التي ذكرنا جلها فيما سبق ، بإسلوب جميل يرتاح له أهل اللغة ، فضلاً عن أنه لا يتتأتأ بكلامه ولا يتردد ويتلعثم ، بل ترى كلماته تخرج من فيه و كأنها عقد اللؤلؤ المنظوم ، وكأنه الماء بانسيابه من علٍ ، وله في كلامه من التجديد والإبداع ما تحتار به العقول وترضخ له الألباب فيأتي بما هو غير مذكور ولا مطروق ، كما نرى ذلك مثلاً بكلام الله تعالى ، أو بكلام رسوله صلى الله عليه وآله ، أو كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

---

1 لسان العرب لابن منظور / إعادة ترتيب يوسف خياط ، دار الجيل ودار لسان العرب / بيروت / 1988 / مادة (فصح) .
2 (وهو اللغوي والأديب المعروف صاحب كتابي أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ؛ المتوفى سنة 471 هج.)
3 دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تصحيح السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1978. ص352، 453.
4 الإيضاح في علوم البلاغة / شرح وتعليق وتنقيح عبد المنعم خفاجي / دار الجيل / بيروت / ط3 / 19/1 .

هذا في الفصاحة ، وأما البلاغة :

فقد قال عبد القاهر الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) :

البلاغة ما هي إلا : (أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لِتأديته ، ويُختار له اللفظ الذي هو أخص به ، وأكشف عنه وأتم له ، وأحرى بِأن يُكسِبه نُبْلا , ويُظْهِر فيه مَزية .) [1].

وقال في موضع آخر : (إن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وإن للإستعارة مَزية و فضلا ، وإن المجاز أبلغ من الحقيقة .) [2].

***

وبعد هذه المقدمة في معرفة سريعة لميزان البلاغة والفصاحة ، نستعرض مصداقاً أعلى لها .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

((أنا أفصح مَن نطق بالضاد بَيدَ أني من قُريش .)) .

وفي نَقل آخَر : ((أنا أفصح العرب بَيدَ أني مِن قُريش ، ونَشأتُ في بني سعد بن بكر))

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :

((وَ إنَّا لأمَراءُ الكلام ، وفينا تَنَشَّبَتْ عُروقُهُ ، وعلينا تَهدَّلَتْ أغصانُهُ .)) .

فعلى هذا عندما نتعامل مع كلامهم عليهم السلام علينا أن نتعامل معه تعاملا خاصا لائقا بذلك ، وعلينا أن نتمعن فيه ونستخرج دُرره وجواهره ، لا أن نحمله على ظاهره البسيط فقط .

وهذا الذي أقول ليس بِدعا فَدونك كتب الأدب العربي ، وكتب الشعر والتعليق الذي عليها تجد ذلك واضحاً ، في شروح الأبيات والقصائد ، وبيان مقاصد الشاعر والأديب .

فكيف سَيَكون التعامل حينئذ مع كلام سادة البلغاء ، وأمراء الكلام ؟!

ومن هنا واقِعا أحببتُ أنْ أغوص في هذه الكلمة الفصيحة العجيبة ، والبليغة الغريبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والله ولي التوفيق . .

1 ص35 .
2 ص55 .

المُقَدِّمَة :

مصادر هذا الحديث :

(عن جعفر بن محمد قال : كانت كنية فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أبيها .

الاستيعاب في تمييز الأصحاب / أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري / ج2 / باب الفاء / فاطمة .) .

بحار الأنوار : ج 43 ، ص19 .

عوالم الزهراء : ص 69 .

التتمة في تواريخ الأئمة / السيد تاج الدين بن علي الحسيني العاملي (ق11) ، ص40 / مؤسسة البعثة، قم ـ إيران / 1412هـ.

مقاتل الطالبيين : 29 .

المناقب لابن المغازلي : 340 ح / 392 .

أُسد الغابة : 5 / 520 .

تهذيب التهذيب: 12 / 440 .

تاريخ الطبري / وفي سنة إحدى عشرة من الهجرة ...

البداية والنهاية / ذكر من توفي في هذه السنة أعني سنة إحدى عشرة ...

فاطمة الزهراء بهجة قلب المصطفى عن المناقب : ج3 / ص357 .

وعندنا نحن الإمامية ذلك أمر متسالم عليه، فهو إن لم يكن متواتراً فمستفيض ، وكل كتاب يتعرض فيه لذكرها سلام الله عليها لابد له أن يزهو به فراجع .

فَصْلُ وَفَحوى الخِطاب

وبما إننا لا نستطيع أن نحمل معناه المنساق من ظاهر اللفظ مباشرة ، كما هو ظاهر لكل أحد ، إذاً يجب أن يكون له معنى آخر .

فما هو يا تُرى ؟

المعنى الأول :

قالوا : إن تفسيره يحتاج إلى مقدمة يُشرح فيها حال رسول الله صلى الله عليه وآله فهو كان قد فقد أبويه وهو لا يزال صغيرا ، إذ فقد أباه وهو لا زال جنينا في بطن أمه ، وعندما بلغ السادسة من عمره الشريف فقد أمه ، فكانت نفسه الشريفة تحتاج إلى حنان الأمومة ورعايتها وذلك ليس نقصا ولا عيبا فهو بشر يشعر بالمشاعر والأحاسيس الإنسانية ويتأثر بها كما هو حال غيره ، فهو يجوع ويعطش ولا عيب في ذلك ولا غضاضة ، وعندما رزقه الله الزهراء سدت هذا الفراغ في نفسه فكانت تداريه وترعاه وخاصة بعد فقد خديجة الكبرى أمها رعاية الأم لولدها وتُذهب عنه الألم وتمنحه الحنان فكانت البنت أمّاً بمعنى الكلمة.

((ولكن حتى نفهم المعنى الدقيق لهذه الكلمة، لا بد أن ندرس حياة رسول الله (ص) وما لاقاه من عنت ومشقة منذ بداية حياته؛ فلقد عانى الكثير، عانى من اضطهاد المشركين له حتى قال: "ما أوذي نبيّ بمثل ما أوذيت" [وحزن لفقد زوجته أم المؤمنين خديجة (ع) والتي كانت ملجأ وكهفاً له يأوي إليه بعد الجهد والتعب الذي يلاقيه من قومه، وتأثر لافتقاد عمه أبي طالب الذي كان يرعاه ويدافع عنه ويقف إلى جانبه، وعانى قبل ذلك اليتم الذي عاش في زوايا إحساسه الإنساني، لأنه عاش يتم الأب وهو جنين، ويتم الأم وهو رضيع، فافتقد رعاية الأب، وحُرم حنان الأمومة.

ونحن نعرف أن حنان الأم يروي قلب الطفل كما يروي الماء الأرض اليابسة، ويغذي روحه بطريقة لا شعورية لا يحس بقيمتها إلا بعد حين، كما أن حنان الأم يجعله في شعور دائم بطفولته ما دام مع أمّه حتى لو صار في سن الخمسين، فإذا ما فارقت أمه الحياة شعر فجأة بالشيخوخة تزحف إلى حياته، ولهذا فالإنسان منا يصعد ويتقدم به العمر ليصبح كهلاً وشيخاً، ومع ذلك يبقى يحس بمشاعر الطفولة تجاه أمه، لأن أمه تحتضنه وتحاكيه وتناغيه، ولأن الأم ـ كما يقال ـ لا تعرف السن التي تتقدّم في ولدها، بل تظل تفكر فيه رضيعاً تحتضنه وطفلاً تلاعبه، والنبي(ص) لم يشذّ عن هذه القاعدة الإنسانية العامة، وهي الحاجة إلى عطف الأم وحنانها ورعايتها واحتضانها، وهذا لا يشكل نقصاً أو عيباً في النبي(ص)، ولا يعني أنه يشكو من عقدة

نقص، لأن النبي(ص) وإن كان في قمة الكمال، لكنه بشرٌ يتمتع بكل خصائص البشر ويشعر بكل حاجاتهم، يجوع كما يجوعون، ويعطش كما يعطشون، ويتألّم كما يتألمون، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون، ولهذا فهو بحاجة إلى الحنان كما هو بحاجة إلى الطعام والشراب وكما أن حاجته إلى الطعام والشراب. لا تمثّل نقصاً أو عقدة نفسية، فكذا حاجته إلى الحنان والعطف، وكما الجوع لا يمثل عيباً عند أي إنسان فكذا عند النبي، وليس هناك فرق بين الجوع إلى الطعام والحاجة إلى الحنان، وقد جاع النبي(ص) حتى ربط حجر المجاعة على بطنه. وقد حدثنا الله سبحانه عن حزن النبي(ص) وضيقه وهو يخفف عنه ذلك: {ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون} [1]، وقال سبحانه: {يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر} [2]. وقال: {فلا تذهب نفسك عليهم حسرات} [3]، إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عن بشرية النبي(ص) وحاجاته الإنسانيّة..

وإذا كان رسول الله(ص) بشراً في إحساسه ومشاعره ، وكان بحاجة إلى الحنان الغامر والفيّاض واللمسة الحلوة ، والاحتضان الرقيق ـ كما يحتاج لذلك كل إنسان ـ لا سيما وهو يعيش تلك المرحلة الصعبة من عمر الرسالة التي كان يُسبُّ فيها ويشتم ويتهم ويرمى بالحجارة والأوساخ ويتعرض لأقسى أساليب التكذيب والمحاربة، فلهذا كان يشعر بالحاجة إلى الراحة والاطمئنان والسكينة والحنان والرعاية والاحتضان .

وأي وقتٍ يحس فيه صاحب الرسالة العظيمة بالحاجة إلى ذلك أكثر من هذا الوقت الذي يجد فيه كل شياطين الأرض والذين لا يعيشون قيمة الإنسان يتكالبون عليه ويهاجمونه بالكلمة والممارسة ؟.

فمن يمدّ الرسول بالعطف والحنان ويخفف عنه الأعباء والآلام والمعاناة ؟!

لم يكن هناك سوى فاطمة(ع) ، فهي التي ملأت بيته بعبق الأمومة وروحها وطهرها وعاطفتها، فكانت أمه بالروح وإن كانت ابنته بالجسد ، أمه بعاطفتها وروحانيتها التي غمرته بها ، كانت تحتضنه قبل أن يضمّها إليه ، وتبتسم له عندما تلمح الكآبة في وجهه ، كانت تهدهد روحه ، وتملأ عليه بيته ، ولئن كانت السيرة لا تحدثنا عن تفاصيل ذلك ، إلا أننا نستطيع أن نلتقطها ونستوحيها من خلال كلمة الرسول الخالدة " فاطمة أم أبيها " .

1 [النحل:127]
2 [المائدة:41]
3 [فاطر:8]

هذه الكلمة التي قالها بعد أن هزّته عاطفتها ، فأطلق كلمته هذه مخلّداً حركة الأمومة في ابنته ، لأن كلمة " أم أبيها " تختزن كل إحساس النبي بحنان ابنته وقلبها الكبير الذي كان يحنو على رسول الله (ص) .

ولنتصوّر كم كانت عاطفة فاطمة وكم كان قلبها كبيراً حتى استطاعت أن تملأ روح هذا الإنسان العظيم وتشعره بالاطمئنان وتحوطه بالرعاية.

لقد كانت أمومتها له(ص) واحتضانها له شيئاً فوق العادة ، كانت بذلك تحمل مسؤولية كبرى ، لأن الأمومة ـ بشكل عام ـ مسؤولية كبرى تملأ فكرالأم وتشغل مشاعرها وأحاسيسها ، وتتعب جسدها وفكرها، باعتبار أن المرأة عندما تكون أماً فإن الولد سيكون محور حياتها ، ولهذا نجد أن بعض الأزواج يغارون من أطفالهم عندما يرون أن زوجاتهم قد شغلن بالأطفال ، هذه هي طبيعة الأمومة بشكل عام ، فكيف إذا كانت الأمومة لشخصية مثل رسول الله(ص) ؟

فلا بد أن يبذل من يقوم بهذا الدور من الجهد والطاقة الشعورية ومن الروح العميقة الممتدة ومن الأفق الواسع ومن خفقات القلب ونبضات الشعور، الشيء الكثير الكثير ليقوم بهذا الدور.

ولذلك فإننا نعتبر أنّ هذه الكلمة توحي بعظمة الزهراء (ع) ، وحتى وإن لم يمدنا التاريخ بكثير من تفاصيل العلاقة بين فاطمة وأبيها ومن حياتها ، فإن هذه الكلمة وحدها كافية للتدليل على منزلتها ومقامها عند رسول الله (ص) الذي { وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى } [1].

فهو لا يتكلم عن هوى أو عاطفة غير مسؤولة ، وإنما يتكلم بالحق والحقيقة والكلام الجادّ.

إن هذه الكلمة تختصر كل حياة الزهراء(ع) ودورها في تخفيف الآلام التي عاشها رسول الله(ص) والأعباء والأثقال التي واجهها من المشركين والمنافقين.)) [2]

وهو كلام رومانسي لطيف عند أول مواجهة معه ، إلا أننا لو تأملناه قليلا لَرأينا فيه ما فيه .

إذ يرد عليه :

1 [النجم:3_4]
2 كتاب الزهراء القدوة / الفصل الثالث / 2 . الزهراء عليها السلام في كلمات الرسول صلى الله عليه وآله / 4. أم أبيها /السيد محمد حسين فضل الله .

أولا : هل تحتاج البنت الصغيرة إلى الأم أكثر أم الولد الذكر البالغ العاقل مع العلم أن الولد قد تزوج واختلط بالحياة وكابدها ؟

إن قلنا الولد الذكر فقد شططنا .

ثانيا : فإذا كان كذلك وقد ماتت خديجة الكبرى أم الزهراء عليهما السلام وهي لا زالت في سن الخامسة ، فمن المحتاج إلى العاطفة وعاطفة الأمومة بالذات الأب أم البنت ؟

الأب الذي تجاوز عمره الخمسين عاما أم البنت التي لم تتجاوز الخامسة ؟

وإن قلت إنها الزهراء ، قلت لك فهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ثالثا : نرى المتكلم الكريم يركز على أيام المحنة الأولى في بداية الرسالة عندما كان المشركون وأهل مكة يرمونه بالحجارة , إذ يقول (وإذا كان رسول الله(ص) بشراً في إحساسه ومشاعره، وكان بحاجة إلى الحنان الغامر والفيّاض واللمسة الحلوة والاحتضان الرقيق ـ كما يحتاج لذلك كل إنسان ـ لا سيما وهو يعيش تلك المرحلة الصعبة من عمر الرسالة التي كان يُسبُّ فيها ويشتم ويتهم ويرمى بالحجارة والأوساخ ويتعرض لأقسى أساليب التكذيب والمحاربة، فلهذا كان يشعر بالحاجة إلى الراحة والاطمئنان والسكينة والحنان والرعاية والاحتضان . وأي وقتٍ يحس فيه صاحب الرسالة العظيمة بالحاجة إلى ذلك أكثر من هذا الوقت الذي يجد فيه كل شياطين الأرض والذين لا يعيشون قيمة الإنسان يتكالبون عليه ويهاجمونه بالكلمة والممارسة.) راجع الكتاب المذكور وقد وردت هذه الجمل في ما أوردناه من مقاطع سابقة فيما مضى .

وهذا أعجب ، فما هو عمر الزهراء عليها السلام في تلك السنين وهيَ كما نعلم قد ولِدَت في السنة الخامسة من النبوة على روايات الخاصة ؟

وما أدرانا أنه أطلق هذه الكلمة في تلك الأوقات ؟

رابعا : شخص عظيم مثل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو قد تجاوز الخمسين وقارب الستين عاما على اعتبار أن ذلك كان بعد وفاة خديجة هل تراه يشعر بمشاعر وأحاسيس فَقْد الأم وفقد حنانها ورعايتها له ، وما سدها شئ في حياته أصلا وقد بقي هذا الأثر في نفسه الشريفة إلى أن جاءت الزهراء فسدته له ، فأطلق هذا القول .

خامسا : فأين صارت تلك المراءة العظيمة فاطمة بنت أسد ؟ وهل ما سدت تلك عاطفته وما ملئت شعوره وأحاسيسه بحنانها ؟؟

ولنرجع لأقواله وأفعاله معها حتى لا نخوض الغمار بلا دليل ولا بصيرة من أمرنا فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله كان يناديها (أمي) [1].

وهاهو الإمام الصادق عليه السلام يقول (كانت (فاطمة بنت أسد) مِن أبر الناس برسول الله صلى الله عليه وآله .) [2].

وفي قول آخر له عليه السلام (وكان النبيّ صلّى الله عليه وآله يحبّها ولا يناديها إلاّ بأمّي) [3].

(و كانت تغسّله وتدهن شَعره وتُرجّله) [4].

ولمّا جاءه أميرُ المؤمنين عليه السّلام مضطرباً بعد ذلك بسنين سأله النبيّ صلّى الله عليه وآله عمّا به، فقال أمّي ماتت فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله: وأمّي واللهِ، ثمّ بكى وقال: وا أماه.،،) [5].

فلاحظ قسم رسول الله صلى الله عليه وآله في الرواية وفكر فيه .

وعن أنس بن مالك قال : لمّا ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ عليّ بن أبي طالب ، دخل عليها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فجلس عند رأسها فقال : رحمك الله يا أمي ، كنت أمّي بعد أمّي ، تجوعين وتشبعيني ، وتعرين وتكسيني ، وتمنعين نفسك طيب الطعام وتطعميني ، تريدين بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ،) [6].

فحفروا لها قبرها، فلمّا بلغوا اللّحد حفره رسول الله (صلى الله عليه وآله) بيده ، وأخرج ترابه ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبرها فاضطجع فيه ، ثمّ قال: « الله الّذي يحيي ويميت ، وهو حيّ لا يموت ، اللّهمّ

1 الخرائج والجرائح /القطب الراوندي /ج1 /138 .
2 أصول الكافي /الكليني /ج1 /ص453 .
3 بحار الأنوار /ألمجلسي /ج35 /ص83 /الحديث 26 , سفينة البحار /7: 122 / مادة فطم .
4 نفس حديث البحار .
5 البحار /ج35 /ص81 /ح 23 , خصائص الأئمة / الشريف الرضي /ص 65 .
6 مقتل الخوارزمي / محمد بن أحمد المؤيد الخوارزمي / 42 .

اغفر لأُمّي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ولقّنها حجته ، ووسّع عليها مدخلها بحقّ نبيّك والأنبياء من قبلي ، فإنّك أرحم الراحمين » وأدخلها رسول الله (صلى الله عليه وآله) اللحد) [1].

وروى إسلام فاطمة بنت أسد وهجرتها وحنانها ورعايتها للرسول ووفاتها وما قال النبي (صلى الله عليه وآله) في فضلها كثير من الحفّاظ والمؤلّفين في كتبهم كابن عساكر وابن الأثير وابن عبد البر ومحب الدين الطبري ومحمد بن طلحة والشبلنجي وابن الصبّاغ البلاذري وغيرهم.

وعندما خاطبه أحدهم يا رسول الله رأيتك فعلت على هذه المرأة شيئا لم تفعله على أحد فقال له : (إن هذه المرأة كانت أمي بعد أمي التي ولدتني) رواه الحاكم في المستدرك بسنده (عن سعيد بن المسيب عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام) .

وقد نقلنا كل ذلك لا لبيان مقام هذه المراءة العظيمة بل لبيان أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يُعدم الحنان والرعاية حتى يكون هناك مَن يسده وهو في عمر الخمسين , ولِذا كان يسميها بأمي وهو الصادق الأمين فَإلى أي درجة وصلت هذه المرأة الجليلة حتى خوطبت بذلك من حبيب الله ورسوله صلى الله عليه وآله ؟ ولا أعتقد أن هذا مما يُناقَش فيه .

سادسا : إن هناك فرقاً بين الجوع والعطش والإحتياج إلى الحنان ، يظهر بالتأمل وفرقاً بين المقامين.

سابعا : هذا المعنى معنى عامي لا يمكن أن يصدر من سيد البلغاء وعميدهم ، فعنه صلى الله عليه وآله وسلم (أنا أفصح مَن نطق بالضاد بَيد أني مِن قريش) وفي غيره (أنا أفصح العرب بَيد أني من قريش ونشأت في بني سَعْد بن بكر) [2].

وقال علي عليه السلام (وإنّا لَأمراءُ الكلام ، وفينا تَنَشَّبَتْ عروقُهُ وعلينا تهدَّلتْ أغصانُه .) [3].

فهل يُمكن مِن هذا البليغ أن يُعَبر عن ذلك بذلك ؟ إن هذا لَشئ بعيد .

1 بصائر الدرجات : 71 عن الصادق(عليه السلام)، وراجع: موسوعة التاريخ الإسلامي: 433/2 - 437 الحاكم : المستدرك: 3|108؛حلية الأولياء / 121 / 3 , المعجم الأوسط / الطبراني / 356 .
2 ذكره المتقي الهندي في كنز العمال 11 : 404 |31884 , رسائل الجاحظ / ج 1 / فصل في تفضيل النطق على الصمت.
3 نهج البلاغة .

نعم يُمكن أن يكون ذلك تعبيرا عن مدى حنانها وعاطفتها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وشمولها له بالرعاية الخاصة فعبَّر صلى الله عليه وآله بذلك عن ذلك ، لا باحتياج نفسه المتكاملة إليه بالمعنى المُصَوِّر ، فيكون هذا اللفظ لِهذا المعنى بديعا .

وإن كان هذا هو المقصود والتعبير كان طافحا عن الضفتين فهو قد أفسد باللفظ وبَيَّنَ بالمعنى فأحدث هذا الإرباك بالصورة والله المُسدد.

ولعل ذلك كان مقصود مَن قال : (ولعل وجه تكنيتها بأم أبيها هو أنه صلى الله عليه وآله وسلم يعاملها عليها السلام معاملة الولد أُمه ، وأنها تعامله معاملة الأم ولدها ، كما أن التاريخ يؤيد ذلك والأخبار تعضده ، ففي الأخبار الكثيرة أنه صلى الله عليه وآله وسلم يقبّل يدها ، ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة المشرفة، ويودعها منطلقا عنها في كل أسفاره ورحلاته، وكأنه يتزود من هذا النبع الصافي عاطفة لسفره كما يتزود الولد المؤدب من أمه.

وتلاحظ من جهة أخرى أن فاطمة الزهراء عليها السلام تحتضنه ، وتضمد جروحه ، وتخفف من آلامه كالأم المشفقة لولدها .

وبالجملة كل ما يجده الولد في أمه من العطف والرقة والشفقة والأنس ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم يجده في فاطمة عليها السلام وكأنها أمه .)[1].

وَ إلا ورد عليه ما أوردناه على القول السابق .

***

وحتى السيد العاملي في معرض حديثه ورده على السيد فضل الله لم يأت بأكثر من هذا واعترض عليه لقوله أنها سدت في نفسه نقصاً ، ولم يعترض على أصل الفكرة بل أيدها وقال بالحرف الواحد ((ونقول : إن هذا الكلام لا يمكن قبوله إذ لا يمكننا قبول مقولة : أن النبي (ص) كان يعاني من عقدة نقص ، نشأت عن فقده أمه ، فاحتاج إلى من يعوضه ما فقده . بل معنى هذه الكلمة : أن الزهراء كانت تهتم بأبيها ، كما تهتم الأم بولدها ، وهذا لا يعني : أن ذلك سيعوض النبي عن عاطفة فقدها ، أو سيكمل نقصا يعاني منه.)) .

1 فاطمة بهجة قلب المصطفى / أحمد الرحماني الهمداني / ص204 .

ثم يكمل كلامه فيقول : ((إن الكلمة المذكورة " : أم أبيها " تريد أن تبين لنا حقيقة وأبعاد تعامل السيدة الزهراء مع أبيها ، ولا تريد أن تتحدث عن ملء فراغات أو حل عقد نقص في الشخصية النبوية المقدسة ، والعياذ بالله .)) .

فمعناها عنده ((أن الزهراء كانت تهتم بأبيها ، كما تهتم الأم بولدها .)) [1].

وتقول كوثر فيصل شريف ((وما كادت الزهراء الصغيرة تخرج من محنة الحصار حتى فوجئت بوفاة أمها خديجة - رضي الله عنها - فامتلأت نفسها حزنا وألما،ووجدت نفسها أمام مسؤوليات ضخمه نحو أبيها النبي الكريم ، وهو يمر بظروف قاسية خاصة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها وعمه أبى طالب. فما كان منها إلا أن ضاعفت الجهد وتحملت الأحداث في صبر ، ووقفت إلى جانب أبيها لتقدم له العوض عن امها الغاليه واكرم الزوجات ولذلك كانت تكنى بأم أبيها.)) [2].

وحتى مثل الدكتور محمد عبده يماني نراه لا يخرج عن هذا مع إنه يقول في معرض كلامه حول هذا الموضوع :

((أم أبيها : كان يطلق على فاطمة الزهراء أم النبي (ص) ، أو أم ابيها ، وقد اجتهد الكتاب وفاضت قرائحهم بالتفسيرات نقتطف منها الآتي :

أ) - لأنها كانت أصغر بنات الرسول (ص) , ولأنها كانت في البيت وحدها بعد موت السيدة خديجة رضي الله عنها ، فتولت رعاية الرسول (ص) والسهر عليه .

ب) - أن من الطبيعي أن تكون الزهراء أماً لرسول الله في رسالته لا في ولادته ولعله لأمر قدر كان النبي (ص) وعلى علم من أنه سوف لن يعقّب إلا من الزهراء فستكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر تاريخ عريق وفي كل الأزمان , لتضاء البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض , ولذلك كان يحبها حباً جماً.

ج) - أن النبي (ص) ولد يتيماً , فقد ولد ولم يجد اباه , ثم ماتت أمه وهو طفل صغير , وكان الرسول (ص) يعامل فاطمة رضي الله عنها معاملة الأم , ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه الى المدينة ، وقد توفيت آمنة بنت وهب وعاش في بيت أبي طالب تحنو عليه فاطمة بنت أسد وتعلق قلبه آنذاك بها , ولقد كان يناديها - ياأماه - وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً ورزقه الله فاطمة , وكلما رآها ذكر فاطمة بين أسد , وتسلى بابنته عنها, ولهذا كناها أم أبيها.

---

1 أنظر مأساة الزهراء عليها السلام / السيد العاملي / ج1 / ص60 .

2 فاطمـــة الزهـــراء / مولدها ونشأتها / إعداد الطالبة: كوثر فيصل شريف / إشراف الأستاذ : خالـــد فرَّاج .

إن الرسول الكريم (ص) لايهب الألقاب عبثاً,ولايمنح الكنى تشبيهاً,وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه.

وهو النبي الكريم والرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم.)) [1].

وكلها " ترهيمات " لاتجد لها عمق تلك الكلمة ، بل تجدها محشورة حشراً مع المعاني ، وإلا ما معنى قوله : (وقد توفيت آمنة بنت وهب وعاش في بيت أبي طالب تحنو عليه فاطمة بنت أسد وتعلق قلبه آنذاك بها , ولقد كان يناديها - ياأماه - وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً ورزقه الله فاطمة , وكلما رآها ذكر فاطمة بين أسد , وتسلى بابنته عنها, ولهذا كناها أم أبيها.) . ؟!

فلو تأملت قليلا لوجدت أن تلك المرأة العظيمة قد ماتت بعد الهجرة ، أي أن عمر الرسول صلى الله عليه وآله أكثر من ثلاثة وخمسين عاماً ، ثم لاحظ قوله (وعندما توفيت حزن عليها حزناً شديداً ورزقه الله فاطمة , وكلما رآها ذكر فاطمة بين أسد , وتسلى بابنته عنها, ولهذا كناها أم أبيها.) ألا تجد أن عبارته تشعر بأن فاطمة قد ولدت بعد ذلك أو قريباً من ذلك ، وهي على رواياتهم قد ولدت قبل البعثة بخمس سنين ، وعلى رواياتنا بعد البعثة بخمس سنوات .

ثم يقول كما نقلنا لك قبل قليل : (إن الرسول الكريم (ص) لايهب الألقاب عبثاً , ولايمنح الكنى تشبيهاً , وإنما هي الحكمة تضع الشيء في موضعه .

وهو النبي الكريم والرسول العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم .)) .

فأي حكمة هذه وأي وضعٍ للشئ في موضعه ؟

فما لنا لا نفكر بالذي نكتبه ؟

وفي المعنى الثاني الذي اختاره نقول : كيف (ستكون هي التيار الذي يحمل نوره عبر تاريخ عريق وفي كل الأزمان , لتضاء البشرية بعد ذلك من هذا النور الفياض , ولذلك كان يحبها حباً جماً.) إلا على القول بانحصار إمامة المسلمين وخلافتهم الصحيحة في نسلها المبارك ، وهو ما نذهب إليه ونقول به ، وهو أحد المعاني التي سنشير إليها . ؟!

أما الأول فلا نطيل بالرد عليه بعد الذي قدمناه .

1 د. محمد عبده يماني / إنها فاطمة الزهراء .

ومن هنا نرى أن اقتطافه من فيض قرائح الكتاب وتفسيراتهم لم يكن موفقاً ، بل الكتاب لم يكونوا موفقين مع الأسف لمعرفة بُعد هذه الكلمة وعظمتها .

***

المعنى الثاني :

(إن النكتة في هذه التكنية إنما هي محض إظهار المحبة ، فإن الإنسان إذا أحب ولده أو غيره وأراد أن يظهر في حقه غاية المحبة قال : (يا أماه) في خطاب المؤنث ، ويا (أباه) في خطاب المذكر، تنزيلا لهما بمنزلة الأم والأب في الحرمة على ما هو معروف في العرف والعادة .) [1].

وهذا الكلام مثل سابقيه إن لم يكن أبعد و أغرب في عدم الوضوح ، والمتكلم هو سيد البلغاء .

***

المعنى الثالث :

(ولقد ورد في صحاح اللغة العربية أن معنى كلمة أُمٌّ هو الأصل كما هو معروف في لسان القرآن الكريم حيث عبر عن مكة المكرمة بـ (أم القرى) أي أصل القرى في الجزيرة العربية ، ومنها انطلقت روح الحياة لكي تغذي القرى ومن حولها وتقوم برعايتها ، وذلك لما لها من مكان وموقع جغرافي في قلب الجزيرة العربية مما جعلها قطب الرحى لبقية القرى ...

وعلى هذا الأساس نفهم معنى هذا الحديث « أم أبيها » حيث نستطيع تفسير بأن فاطمة عليها السلام كانت مصدر ذرية رسول الله ومنبع نسله ، وهذا ينطبق ويتماشى مع تفسير الكوثر الذي هو مصدر ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .) [2].

***

1 اللمعة البيضاء / ص50 / المولى محمد علي بن أحمد القراهداغي الأونساري المتوفى سنة 1306 هج .
2 الأسرار الفاطمية /البحث العاشر / فاطمة أم أبيها / ص271 / الشيخ محمد فاضل المسعودي .

المعنى الرابع :

أم كل شئ أصله وعماده [1].

فحينئذ تعبيره صلى الله عليه وآله إما أن يكون مشابهاً لتعبيره صلى الله عليه وآله عن الحسين عليه السلام (حسين مني وأنا من حسين) فَعبِّر صلى الله عليه وآله وسلم بتضحية الحسين وشهادته في سبيل دين جده المصطفى صلى الله عليه وآله ، وإنقاذه مما كان فيه مِن خطر عظيم حيث لولا وقوفه الصامد ذاك لانطفأ نور الله تعالى في أرضه وسماواته فعبر عن ذلك بِأنه منه وهو أجمل تعبير ، فكذلك هنا لولا وقوف الزهراء عليها السلام ذلك الموقف العظيم دِفاعا عن الحق وأهله ، في وجه الإنقلاب الكبير الذي حصل بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى لانطفأ نور الله كما هو واضح ، فهي التي مهدت وأسست اللبنات الأولى للدفاع عن نهج الرسول صلى الله عليه وآله وما بكاؤها ، وخطبتاها ، ودفنها ليلا ، وعدم السماح لأحد مِن أولئك الذين غصبوا الخلافة الإلهية مِن بعلها ، ومنعوها حقها أن يحضروا جنازتها أو أن يشهدوا دفنها ، وحتى اختفاء قبرها لِحد كتابة هذه السطور كل ذلك دليل واضح على الفتنة التي وَلَّدَها أولئك الظالمون فلم تُصِبْهُم خاصة بل شملت البشرية كلها إلى ظهور الحجة عجل الله له الفرج ، وكذا دفاعها عن إمام زمانها علي عليه السلام إذ لولا وقوفها الصامد ودفاعها المستميت عليها السلام في تلك اللحظات الحرجة لَقَتَلوا علياً كما قُتِل سعد بن عبادة وغيره بواسطة الجن أو غير الجن ...

***

المعنى الخامس :

أو يكون المقصود الشريف معنى آخر أدق ، فعندما عبر الرسول الأكرم عن فاطمة الزهراء صلى الله عليه وآله وسلم بأم أبيها كان ذلك تعبيرا عن أن أصل النبي الكريم الزهراء وعماده .

والنبي يمثل النبوة الإلهية والخلافة الكاملة والحقيقة لله تعالى في الأرض ، التي من أجلها خُلِقَ آدم .

فَمِن هنا يُمكن أن نُدرِك بعض مقامات الزهراء عليها السلام فهي عماد من أعمدة الخلافة الحقيقة لله تعالى في الأرض بل هي أصل وعماد الرحمة الإلهية المتمثلة برسول الله الكريم صلى الله عليه وآله المُعَبِّر عنها في

1 لسان العرب / ابن منظور ؛ القاموس المحيط / الفيروز آبادي ؛ مجمع البحرين / العلامة الطريحي .

كتاب الله المجيد ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) الشاملة لكل العوالم لِمكان الجمع ودخول الألف واللام عليها .

فتدبر بهذا فإنه حري بذلك فإنه بِهذا تُحل أسرار كثير من الروايات الواردة لِبيان مقام الزهراء عليها السلام وعلو شأنها .

***

المعنى السادس :

(الأُمّ كالأمَّة ، وأصل هذا الباب كله من القصد .
ويقال: أَمَمْتُ إليه إذا قَصَدْتهِ فمعنى الأُمَّة في الدِّينِ أَنَّ مَقْصِدَهم مَقْصِد واحدِ ، ومعنى الإِمَّة في النِّعْمة إنما هو الشيء الذي يَقْصِده الخلْق ويَطْلُبونهِ ، ومعنى الأُمَّة في الرجُل المُنْفَرد الذي لا نَظِير له أَن قَصْده منفرد من قَصْد سائر الناس .) .
قال تعالى : ((وأمَّا مَن خفَّتْ مَوازينُهُ فَأُمُّهُ هاويَة)) [1].
أي مقصده ومأواه الهاوية وهي مِن أسماء النار .
على هذا يكون معنى الحديث الشريف أن الزهراء البتول هي المقصد لرسول الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم , وللرحمة الإلهية التي يجسدها, وهيَ استقراره .

وهذا المعنى اللطيف وجدته أول ما وجدته في قول مَن قال :
(بعضهم فسّر الأمر أن النبي كان بحاجة إلى عطف وحنان لأنه بدأ حياته وهو يشكو فقد الأم ، لِهذا قال هذه المقالة ؛ والصحيح معناه أن فاطمة مقصد أبيها لان لفظ (أم) يدل على المقصد والمنتهى كما في قوله تعالى في مَن يَرد جهنم (فَأُمُّهُ هاوية) أي مقصده ومنتهاه جهنم لان هاوية إسم لجهنم ، وفي حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فاطمة أم أبيها يعني رحمة العالمين مقصدها ومنتهاها فاطمة ، لان كلمة النبي صلى الله عليه وآله بِحقها عليها السلام أم أبيها تريد أن تبين حقيقة وأبعاد تعامل الزهراء مع أبيها وموقعها صلوات الله عليها من مقام النبوة المحمدية .) [2].

***

1 8-9 القارعة .
2 مجلة الجنان الإلكترونية / السنة الثانية /العدد الرابع / شهر ج 2 / 1421هج / التولي والتبري .. / الشيخ رحمة الله العاملي .

المعنى السابع :

(في الحديث: اتَّقوا الخَمْر فإنها أُمُّ الخَبائث ؛
وقال شمر: أُمُّ الخبائث التي تَجْمَع كلَّ خَبيثٍ ,
قال : وقال الفصيح في أَعراب قيس : إذا قيل أُمُّ الشَّرِّ فهي تَجْمَع كل شرَ على وَجْه الأَرضِ وإذا قيل أُمُّ الخير فهي تجمع كلَّ خَيْر ؛
ابن شميل: الأُمُّ لكل شيء هو المَجْمَع والمَضَمُّ .
ويقال أَيضاً : أُم الرأْسِ و أُمُّ الرأْس الدِّماغ ؛ قال ابن دُرَيد : وهي الجِلْدة الرقيقة التي عليها وهي مُجْتَمَعه)[1].
(قوله تعالى: (وإنه في أم الكتاب) [2] يعني في أصل الكتاب ، يريد اللوح المحفوظ . وأم الكتاب أيضا : فاتحة الكتاب .

وسميت أمّا لأنها أوله وأصله ، ولان السورة تضاف إليها ولا تضاف هي إلى شئ .

وقيل سميت أمّاً لأنها جامعة لأصل مقاصده ، ومحتوية على رؤوس مطالبه ، والعرب يسمون ما يجمع أشياء متعددة : أمًا ً، كما يسمون الجلدة الجامعة للدماغ وحواسه أمّ الرأس ، ولأنها كالفذلكة لِمَا فُصِّل في القرآن المجيد ، لاشتمالها على المعاني في القرآن من الثناء على الله بما هو أهله ، ومن التعبد بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، فكأنه نشأ وتولد منها بالتفصيل بعد الإجمال ، كما سميت مكة أمّ القرى لان الأرض دحيت منها .) [3].

ومن هنا نقول إن معنى الحديث الشريف إن الزهراء البتول ما هيَ إلا مجمع لكمالات الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله ، ولِهذا أشار صلى الله عليه وآله فقال فاطمة أمّ أبيها .
فما كان في رسول الله صلى الله عليه وآله من علو الهمة وكرم الأخلاق كله كان مرتكزا عندها سلام الله عليها فهي مركز الأخلاق المحمدية التي أشار إليها رب العزة في قوله تعالى ((و إنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيم)) .
وهيَ مركز الرحمة الإلهية كلها وهيَ المعين الصافي لِكُل الكمالات وبذلك صدق قول الصادق الأمين وهو الصادق (إن الله يرضى لِرضاها ويغضب لِغَضَبِها) .

***

1 راجع في ذلك كله لسان العرب / ج 1 / إبن منظور .
2 [43 / 4] الآية .
3 الطريحي / مجمع البحرين / مادة أ م م .

المعنى الثامن :

وبما إن الأم لكل شيء كما ظهر فيما سبق هو المَجْمَع والمَضَمُّ , وهي كانت روحي فداها مركز النور المحمدي والعلوي فمنها انطلق إلى عالم الوجود المادي ، بعد أن تفرق ذلك النور المنتقل من صُلب آدم إلى أولاده الذين هم آباء رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وصل إلى عبد المطلب فانقسم قسمين قسم في عبد الله وآخر في أبي طالب ، وظهرا في محمد وعلي صلى الله على محمد وآل محمد ، وتكاملا بهما ، كما أشارت إلى ذلك روايات كثيرة منها ما لفظه :

عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله جلّ جلاله قبل أن يخلق آدم بأربعة آلاف عام ، فلمّا خلق الله تعالى آدم سلك ذلك النور في صلبه ، فلم يزل الله عزّ وجلّ ينقله من صلب إلى صلب حتى أقرّه في صلب عبد المطّلب ، ثمّ أخرجه من صلب عبد المطّلب فقسّمه قسمين ؛ فصُيّر قسم في صلب عبد الله ، وقسم في صلب أبي طالب ، فعليّ منّي ، وأنا من عليّ ، لحمه من لحمي ، ودمه من دمي ، فمن أحبّني فبحبّي أحبّه ، ومن أبغضه فببغضي أبغضه [1].

واجتمع النور في فاطمة الزهراء تارة أخرى بكل نقائه وصفائه وطهارته فكانت زهراء بالاسم والمعنى وبالذات , ومنه تجسد النور الخالد للذرية الطاهرة المباركة .

***

المعنى التاسع :

كما أنها هي مرجع الأنوار كلها ومجمعها ؛ توضيحه : هي أم على الحقيقة للأطهار المعصومين من الحسن والحسين والتسعة المعصومين من أولاد الحسين , و بهذا القول (فاطمة أم أبيها) كُشِف بأنها مرجع محمد

1 الخصال: 640 / 16 عن محمّد بن عبد الله عن أبيه عن آبائه ; المناقب للخوارزمي: 145 / 170، مقتل الحسين للخوارزمي: 1 / 50، فرائد السمطين: 1 / 43 / 7 كلّها عن زياد بن المنذر عن الإمام الباقر عن آبائه: عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيها "بأربعة عشر ألف" بدل "بأربعة آلاف عام".
وورد مثله في المناقب لابن المغازلي ، 88 / 130 عن سلمان وح 131 عن أبي ذرّ وفيه "عن يمين العرش" بدل "بين يدي الله" ، وفي تاريخ دمشق: 42 / 67 / 8415، المناقب للخوارزمي: 145 / 169 ، الفردوس: 3 / 283 / 4851 وج 2 / 191 / 2952 ; شرح الأخبار: 1 / 220 / 200 وراجع علل الشرائع : 134 / 1.
وفي المناقب لابن المغازلي: 89 / 132، العمدة: 90 / 109 كلاهما عن جابر بن عبد الله.
وفي الأمالي للطوسي: 295 / 577، بشارة المصطفي: 185 كلاهما عن عيسي بن أحمد عن الإمام الهادي عن آبائه عليهم السلام ؛ إرشاد القلوب: 258.
و أخيراً لا آخراً أنظر إثبات الوصيّة: 141 وراجع روضة الواعظين: 88.

بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا ننس بأن عليا نفس محمد بصريح القران بدلالة قوله تعالى (وأنفسنا وأنفسكم) ، وقد ورد بالأخبار أنهما صلى الله عليهما وآلهما الطيبين الطاهرين خُلِقا من نور واحد .

قال الشيخ الصدوق رحمه الله حدثنا محمد بن عمر الحافظ البغدادي قال حدثني أبو محمد الحسن بن عبد الله بن محمد بن علي بن العباس التميمي الرازي قال حدثني أبي قال حدثني سيدي علي بن موسى الرضا قال حدثني أبي موسى بن جعفر قال حدثني أبي جعفر بن محمد قال حدثني أبي محمد بن علي قال حدثني أبي علي بن الحسين قال حدثني أبي الحسين بن علي قال حدثني أخي الحسن بن علي قال حدثني أبي علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) خُلِقتُ أنا وعليٌّ من نورٍ واحد [1].

فهي مرجع علي عليه السلام حينئذ أيضا ، إذاً فهي مرجع نور محمد وعلي ، وبذلك تكون سلام الله عليها مجمع النور كله ، ومرجعه ومصدره ، فهي أصل النور ، وفاتحة النور ، كما كانت سورة الحمد فاتحة الكتاب ، وأم الكتاب .

ومن هنا سنكتشف بعض سر الحديث القدسي في واقعة حديث الكساء عندما سأل جبرائيل عليه السلام رب العِزّة سبحانه و تعالى (وَ مَنْ تحتَ الكساء ؟) ، قال عز مِن قائل (هم فاطمة وأبوها وبعلها وبنوها) ، فهي المركز ومنها التشقيق والتعريف .

***

المعنى العاشر :

نتقرّب إليه ونستوضحه بقولِه تعالى :

((هُوَ الَّذي أنْزَلَ عَليكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحكَماتٌ هُنَّ أمُّ الكتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهات)) [2].

1 (المجلس الحادي والأربعون / رقم عشرة / أمالي الشيخ الصدوق .).
وراجع مثله في : الخصال: ٣١ / ١٠٨، الأمالي للصدوق: ٣٠٧ / ٣٥١ كلاهما عن عبد الله الرازي، عيون أخبار الرضا: ٢ / ٥٨ / ٢١٩ عن الحسن بن عبد الله الرازي وكلّها عن الإمام الرضا عن آبائه عن الإمام عليّ (عليه السلام)، الفضائل لابن شاذان: ٨٢ وص ١٠٨ عن سلمان والمقداد وعمّار وأبي ذرّ وحذيفة بن اليمان وأبي الهيثم بن التيّهان وخزيمة بن ثابت وعامر بن واثلة، شرح الأخبار: ١ / ٢٢٠ / ٢٠٠ ; الفردوس: ٢ / ١٩١ / ٢٩٥٢ كلاهما عن سلمان، تذكرة الخواصّ: ٤٦.
ومثله في فرائد السمطين: ١ / ٤٠ / ٤ عن ابن عبّاس.
وفي عوالي اللآلي: ٤ / ١٢٤ / ٢١١.
وكذا في علل الشرائع: ١٣٤ / ١، معاني الأخبار: ٥٦ / ٤، بشارة المصطفي: ٢٣٥ كلّها عن أبي ذرّ، روضة الواعظين: ١٤٤، المناقب لابن شهر آشوب: ١ / ٢٧.
2 سورة آل عمران - سورة 3 - آية 7.

((و قد وصف المحكمات بأنها أم الكتاب ، والأم بحسب أصل معناه ما يرجع إليه الشيء ، و ليس إلا أن الآيات المتشابهة ترجع إليها .

فالبعض من الكتاب وهي المتشابهات ترجع إلى بعض آخر وهي المحكمات ومن هنا يظهر أن الإضافة في قوله أم الكتاب ليست لامية كقولنا : أم الأطفال ، بل هي بمعنى من .)) [1].

والمتشابه كما نعلم هو الذي لا يظهر معناه إلا ببيان وتوضيح ، وإذا لم يظهرْ لنا معناه فالمَرجِع حينئذٍ الآياتُ المُحكَماتُ اللاتي هنَّ أمُّ الكتاب .

فعلى هذا نقول إننا نرجع لدى الشك وعدم الوضوح ، وربما الاختلاف في أمر إلى شئ واضح لا لَبْس فيه .

فلو اختلفنا في موضع مُعَين وارتبكنا في أمرِنا ولم نعلَم فَرَضا حُكم رسولِ الله صلى الله عليه وآلِه وسلم ، فَسَيَكون المُبين له و الذي نرجع إليه هو المُحكَم مِن أمره المُعَبَّر عنه ب (أمِّهِ) ، كما رجعنا بالمتشابه من الآيات إلى أمِّ الكتاب ، وما أمُّهُ إلا الزهراء البتول عليها السلام ، فيظهر لنا الحكم .

و من جملة تطبيقاته مَثَلاً اختلافها مع السلطة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حيث ادَّعت الإرث ، وهم قالوا بان محمدا صلى الله عليه وآله مات ولم يورِث بحديث مزعوم مفادُهُ إنا معاشر الأنبياء لا نُوَرِث ، ما تركناه صدقة ، وحدث الإختلاف حينئذٍ ، وفي مثله كان عليهم أن يرجعوا إلى الزهراء البتول عليها السلام لِبيان حكم رسول الله صلى عليه وآله وسلم لبيان تصرفه في مثله على اعتبار أنها أمُّ أبيها ، فما لم يتوضح منه علينا الرجوع إلى ما فيه مجمع حكمه ، وهو الحل في مثلِه ، وقد بينه صلى الله عليه وآله بأخصر عبارة وأحسن بيان ، وما بعد الهدى إلا الضلال المبين ، كما هو مفاد كثير من الآيات والروايات .
فلاحظ فَإنهُ حَريٌّ بالمُلاحَظة والتدقيق .

***

المعنى الحادي عشر :

بما إن الزهراء البتول كانت تعيش قريبا مِن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وهيَ مَن هي , وقد أنزل الجليل عز من قائل في كتابه تسمية أزواج الرسول صلى الله عليه وآله بِأُمهات المؤمنين فَلَرُبما ينشأ في نفوسِهِنَّ

1 محمد حسين الطباطبائي / الميزان / في تفسيره لهذه الآية المباركة .

من ذلك بعض السمو على فاطِمة , أو ربما يرى المؤمنون من ذلك منزِلة لَهُنَّ دونها منزلة الزهراء عليها السلام , وشَّحها الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بِهذا الوشاح الخالِد , وأعطاها هذا الوسام المبارك فَكَنَّاها بِـ (أُمِّ أبيها) تبيانا لِمقامِها عِنده صلى الله عليه وآلِه وإجلالا لها ، إشارةً لِبعض معاني الحديث المدرجة .

ولعل هذا كان أحد جهات سبب تكنيتها بذلك ، فهو أقرب لِهذا من كونه معنى مستقلاً .

***

والمعنى الأخير :

ما هوَ إلا المعنى الجامِع لِكُلِّ المعاني الصحيحة التي مرَّت ، وليس بِدعاً في كلام العرب أن يستعمِلوا اللفظ ويريدون عِدَّة معانٍ منه ، خاصة إذا كان المقام يتطلب ذلك .
فالكناية عن كل ذلك بالأمِّ لَـهوَ أُمُّ الكلام ، بديع لا يرتكبه إلا الأوحدي من الناس ، والكناية كما يعلم أهل اللغة أبلغ مِن التصريح .
ولعلَّ الشيخ محمد حسين الكمباني الأصفهاني أصاب بعض هذه المعاني في أرجوزته الخالدة (الأنوار القدسية) حيث قال :

جوهرةُ القدس مِنَ الكنز الخفي * بدتْ فأبدت عالياتِ الأحرفِ
وقد تجلّى مِن سماء العظمةْ * مِن عالم الأسماء أسمى كلِمَةْ
بل هي أُمّ الكلمات المحكمهْ * في غيب ذاتها نكاتٌ مُبهَمهْ
أُمّ الائمة العقول الغرَّ بلْ * أُمّ أبيها وهو علة العللْ
روح النبيّ في عظيم المنزلهْ * وفي الكفاء كفوُ مَن لا كفوَ لَهْ

فتأمل .

فَما هيَ الزهراء ؟ وَمَنْ هي ؟

ولِهذا وغيرِهِ فُطِمَ الخَلقُ عن مَعْرِفَتِها .

وبهذا نختم كلامنا حول هذه الكلمة المحمديَّة شاكرين حامدين ، مصلِّين على خير خلقه وسادة بريته محمدٍ و آله الطيبين الطاهرين ، اللهم صل على محمد وآل محمد .

إنَّ مَن كانَ رَبُّها مُجْتَبيها

لأبـيـها وَبعلِها وَبـَنيـها

كيفَ بِاللهِ مَدْحُها وَهيَ كانتْ

فَوقَ هذي وَتِلْكَ"أمّ أبيها"؟!

المؤلف

نهج الكوثرية

وقد قلت فيها عليها أفضل الصلاة والسلام قصيدة على غرار قصيدة المرحوم المغفور له السيد رضا الهندي في مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام المسماة بالقصيدة الكوثرية ، وقد جاءت أصل الفكرة بمناسبة الحكم والموضوع كما يقولون :

يا أوَّلَ نورٍ قدْ صَوَّرْ *** وَبِهِ كُلُّ نبـيٍ بَشَّـرْ
إنـَّا أعطيناكَ الزَّهرا *** إنـَّا أعْطَـيناكَ الكَـوثَـرْ
أبناءُ الزَّهرا والزَّهرا *** وأبـوها والمولى حيدرْ
ما يبدو خيرٌ في الدنيا *** إلا وَهُمُ كانوا المَصْدَرْ
ومكارمُها تبدو عـرَضاً *** وهمُ كانوا نِعْمَ الجوهرْ
فـَهُمُ أولُ مَن قد صلـَّى *** أولُ مَن هـلَّلَ أو كبـَّرْ

******

الجنـَّة أكبرُ مِن وَصْفٍ *** وفواكـِهُها حُسْناً أكبرْ
والـزَّهـرا فاكِهَـةٌ مِـنها *** وَلِذا فيها سِـحْرٌ يُؤثـَرْ
والشعرُ علا بـِمدائِحِها *** لا يُذْكرُ شيءٌ إن تـُذْكرُ

أنوارُ مَدائِحِها تطغى *** حتـَّى في الصُّبح إذا أسفرْ
وعَبيرُ مدائحِها يَذكو *** حتى في المِسْكِ أو العَنْبَرْ
وَرَقيقُ مدائحِها حُرٌ *** لِسواها بالمِلْكِ فَلا قَرْ
وجمالُ مدائحها يبدو *** كجمالِ الرَّوضِ إذا أزهرْ
كالورد الأحمر إذ يبدو *** يجلِسُ في محرابٍ أخضرْ

******

وإذا ما شئتَ لها وَصْفاً *** فالنورُ لها أقرَبُ مَصدَرْ
وَلِذا في المحشرِ لا تبدو *** حتـَّى بِالغضِّ لنا يُؤمرْ
فسنا برقِ الزهرا سِحْرٌ *** يَخطَفُ ألبابَ ذوي المَحشرْ
ويكادُ سنا برق الزهرا *** يَذهَبُ بالأبصار إذا مَرْ
وربيعُ مَدائحِها فيضٌ *** مِن جَنَباتِ العرش تَحَدَّرْ
وَبِهِ أرضُ الشعر ستنمو *** وسماواتُ الشعر سَتَكْبَر
وَ تكادُ سماواتُ الشُّعَرا *** ءِ بِمَدْحِ الزَّهرا تَتَفَطَّرْ

******

الزهرا مِشْكاةٌ فيها *** مِصباحٌ يا حُسْنَ المنظرْ
والمصباحُ إذا ما يَبْدو *** في نور زجاجتِهِ مُغْمَرْ
دُرِّيٌ كَوكَبُها يَعلو *** وبِهِ نُورُ اللهِ تَكَوَّرْ
يُوقَدُ مِن زيتونة خيرٍ *** ولَهُ اللهُ لِهذا اسْتَأثَرْ
ويكادُ الزيتُ يُضيءُ وَلو *** لَمْ تَمْسَسْهُ النارُ فيؤمرْ

نـورٌ فـي نـورٍ مِن نـورٍ *** سبحانَ اللهِ إذا صَوَّرْ

******

قد قـَال لـها الهادي قـَولاً *** حسبي هذا وَبهِ أفـْخـَرْ

الباري يَرضى لِرضاها *** وبذا حتى الشانئُ قدْ قـَرْ

وَ يُـكـَنـِّيـها "أمَّ أبـيـها" *** وَ تـُخـَصُّ بـآيـاتٍ أكـْثـَرْ

وَ يُـقـَبـِّلُ حُـبـّاً إكـْراماً *** يـدَها وَ الأمـْرُ هـُنا أبـْهـَرْ

فـَالهادي لا ينطِق هَجـْراً *** لا يفعـَلُ إلا ما يُـؤمـَرْ

******

شيعتـُها فازوا بولاها *** قدْ فـُطِموا مِن نار تـَسْعَرْ

المصادر :

القران الكريم
1 : أحكام القران / ابن عربي
2 : إثبات الوصيّة / المسعودي
3 : أسد الغابة في معرفة الصحابة / ابن الأثير
4 : إقبال الأعمال / السيد ابن طاووس
5 : الإتقان في علوم القرآن / جلال الدين السيوطي .
6 : الاستيعاب في تمييز الأصحاب / أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري
7 : الأسرار الفاطمية / الشيخ محمد فاضل المسعودي .
8 : الأمالي / الشيخ الصدوق
9 : الأمالي للشيخ الطوسي
10 : الإيضاح في علوم البلاغة / القزويني
11 : البداية والنهاية لابن كثير
12 : البرهان. الزركشي
13 : البيان / السيد الخوئي
14 : التبيان الجامع لعلوم القرآن / الطوسي (ت 460 هـ) .
15 : التتمة في تواريخ الأئمة / السيد تاج الدين بن علي الحسيني العاملي (ق11)
16 : الجواهر / العلامة الطنطاوي / تفسير
17 : الخصال / الشيخ أبوجعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي
18 : التحرير والتنوير / العلامة الطاهر بن عاشور التونسي . تفسير
19 : (الثغور الباسمة). السيوطي
20 : الدر المنثور في التفسير بالمأثور / السيوطي
21 : الزهراء القدوة / محمد حسين فضل الله
22 : الصافي في تفسير كلام الله الوافي/ الفيض الكاشاني (ت 1090 هـ) .
23 : الكافي / الكليني
24 : الكشف والبيان / الثعلبي (ت 427 هـ) . تفسير
25 : اللباب في علوم الكتاب/ ابن عادل (ت 880 هـ) . تفسير
26 : اللمعة البيضاء / المولى محمد علي بن أحمد القراهداغي الأونساري المتوفى سنة 1306 هج .
27 : المختار من مناقب الأخيار / ابن الأثير
28 : المناقب/ ابن شهراشوب
29 : المناقب / الخوارزمي
30 : المناقب / لابن المغازلي
31 : الميزان / السيد الطباطبائي
32 : النهر الماد العلامة الأندلسي (ت 754 هـ) تفسير

33 : الهادي فيما يحتاجه التفسير من المبادئ / آية الله العظمى الشيخ هادي كاشف الغطاء " قدس سره" .
34 : الشّرف المؤبّد يوسف النبهاني
35 : السلسلة الصحيحة للألباني
36 : الصواعق المحرقة / ابن حجر
37 : الخرائج والجرائح /القطب الراوندي
38 : إنها فاطمة الزهراء . . د. محمد عبده يماني
39 : انوار التنزيل واسرار التأويل / البيضاوي (ت 791 هـ) تفسير
40 : بحث للدكتور (حسام النعيمى) / من دراسة له كتبت في سورة (يوسف)
41 : بشارة المصطفي / لعماد الدين أبي جعفر محمد بن أبي القاسم الطبري من علماء الامامية في القرن السادس .
42 : بصائر الدرجات ابى جعفر محمد بن الحسن الصفار ت 290 هـ
43 : بيان السعادة في مقامات العبادة / العلامة الجنابذي / تفسير
44 : تاريخ الطبري
45 : تاريخ دمشق: ابن عساكر
46 : تفسير ابن كثير
47 : تفسير الجلالين - جلال الدين محمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن السيوطي
48 : تفسير الطبري
49 : تفسير القرطبي
50 : تفسير فرات الكوفي/ فرات الكوفي (ت القرن 3 هـ .
51 : تنوير القباس من تفسير ابن عباس / الفيروز آبادي . تفسير
52 : تهذيب التهذيب./ ابن حجر العسقلاني
53 : جامع البيان في تفسير القران . الطبري / تفسير
54 : حقائق التفسير/ السلمي (ت 412 هـ) تفسير
55 : خصائص أمير المؤمنين) النسائي
56 : دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني
57 : ذخائر العقبى) / محب الدين الطبري
58 : رسائل الجاحظ
59 : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) الآلوسي تفسير
60 : روضة الواعظين للنيسابوري
61 : زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي (ت 597 هـ) . تفسير
62 : شرح اصول الكافي / الكليني
63 : شرح المواهب اللدنية / الزرقاني
64 : شواهد التّنزيل /الحافظ الحسكاني الحنفي
65 : صحيح البخاري
66 : صحيح مسلم
67 : عرائس البيان في حقائق القرآن/ البقلي (ت 404 هـ) . تفسير
68 : علل الشرائع / الشيخ الصدوق
69 : علم اليقين / الفيض /
70 : عوالم الزهراء : الشيخ عبد الله البحراني
71 : عوالي اللآلي: الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم بن أبي جمهور الإحسائي

72 : غرائب القرآن و رغائب الفرقان/ القمي النيسابوري (ت 728 هـ) . . تفسير
73 : فاطمة بهجة قلب المصطفى / أحمد الرحماني الهمداني
74 : فاطمة من المهد إلى اللحد / السيد كاظم القزويني
75 : (فرائد السمطين) الحموينى
76 : في ظلال القران سيد قطب
77 : كشف الغمة / الإربلي
78 : كنز العمال / المتقي الهندي
79 : لباب النقول في أسباب النزول / للإمام السيوطي
80 : لباب التأويل في معاني التنزيل/ الخازن (ت 725 هـ) . تفسير
81 : لسان العرب . لابن منظور
82 : لمسات بيانية / برنامج فضائي على قناة الإمارات / د. فاضل السامرائي
83 : مأساة الزهراء عليها السلام / السيد العاملي
84 : " ما روي في الحوض والكوثر " / بقي ابن مخلد القرطبي .
85 : مجلة الجنان الإلكترونية / العدد الرابع / 1421هج / التولي والتبري .. / الشيخ رحمة الله العاملي
86 : مجمع البحرين . الطريحي
87 : // مجمع البيان في تفسير القران / الشيخ الطبرسي ، ت 548هـ . تفسير
88 : مجموع فتاوى ابن تيمية / تقي الدين ابن تيمية
89 : مدارك التنزيل وحقائق التأويل / النسفي (ت 710 هـ) ؛ تفسير
90 : مستدرك الصحيحين / الحاكم النيسابوري
91 : مسند الإمام أحمد بن حنبل
92 : مصباح المتهجّد / الكفعمي
93 : معاني الأخبار / الشيخ السعيد أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي
94 : معجم الفروق اللغوية / أبو هلال العسكري
95 : معرفة الصحابي / أبو نعيم الأصبهاني /
96 : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب / ابن هشام الأنصاري
97 : مقاتل الطالبيين / أبو الفرج
98 : مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير/ الرازي (ت 606هـ). تفسير
99 : مقتل الخوارزمي / محمد بن أحمد المؤيد الخوارزمي
100 : منتخب كنز العمال / المتقي الهندي
101 : ميزان الاعتدال / الذهبي
102 : من وحي القران / السيد محمد حسين فضل الله
103 : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/ البقاعي (ت 885 هـ) . تفسير
104 : نظم المتناثر من الحديث التواتر / الإمام محمد بن جعفر الكتاني
105 : نهج البلاغة
106 : ينابيع المودة /القندوزي
ومصادر أخر مذكورة في محلها .

الفهرست :

ما قبل التفسير.....5
بيان لمعنى لفظ " السورة " .
وبيان تسمية هذه السورة .

خصائصها.....7

بعض ما تحويه من بدائع عربية.....9

بيان المعنى للمرحلة الأولى.....15
وهو بيان إجمالي بسيط لمعناها .

المرحلة الثانية من التفسير.....17
نحن والسورة : قصة هذه السورة وسبب نزولها .
إثبات كونها مكية ، وليست بمدنية .

بماذا فسَّر القوم الكوثر؟!.....25
استطراد سريع لمعاني الكوثر الواردة .
المعنى الروائي : ل " فصل لربك وانحر " ، وإظهار المعنى .
المعنى الروائي : ل " إن شانئك هو الأبتر " ، وإظهار المعنى .

المرحلة الثالثة من التفسير.....31
الإستهلال بمقدمة سريعة للإعجاز القراني .

نحن والسورة.....33
التدبر في الآيات ، وروعة الإستهلال فيها .
التركيز على " إنا "
التركيز على " أعطيناك " ، والتعرض للنكات الأدبية في اختيار الألفاظ في هذه السورة العظيمة .

الكوثر.....41
التركيز على الكوثر ، وعمق الدلالة في هذه اللفظة .
بيان : " إن شانئك هو الأبتر " ، ولماذا الأبتر ؟

المرحلة الرابعة من التفسير.....45

فصل في الشكر.....45

بيان لِما ذهب إليه كل المفسرين ، والنقاش في ذلك كله .
ونتم الحديث : ((فَصَلِّ لِربِّكَ وانحر)) ، دخول في عمق الكلمات .

مرحلة أخرى من التفسير.....53
تعرض سريع لبعض التفاسير العرفانية .

المرحلة الأخيرة من التفسير.....59
لماذا أعطيناك ؟ تتمة الحديث في هذه اللفظة .
ثم الحديث حول ما ملنا إليه من تفسير ، بناءاً على تلك المقدمات التي مرت بنا .

لِماذا الحوض والطرد؟!.....73
لماذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أعطاه الله الكوثر ، وأمره بالصلاة والنحر ، وبشره بكون شانئه هو الأبتر ، وهو من الكرامة و السعادة والخير بمكان ، بعد أن يصف الحوض لأصحابه بما يحيّر الألباب ويذهب بالعقول ، ليُفرح القلوب ويسعدها ، أقول لماذا يُنغّص ذلك كله عليهم بإخبارهم من أن هناك جماعة من أصحابه سيأتون لِيردوا الحوض فيُطردون عنه ؟!
وما علاقة ذلك بهذه البشارة العظيمة ؟!

ما بعد التفسير.....83
قد قابلوا سورة الكوثر بعدة سور من القران الكريم ، إستعراض لذلك .
ولكنهم غفلوا أن يقابلوها بسورة الحمد ، وها نحن نفعل .

الفصل الثاني.....87
ميلاد الزهراء فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

القول الفصل.....89
نستدل على ترجيح السنة الخامسة الهجرية .

وقرينة أخرى.....93
في أن سورة الكوثر تعني فاطمة عليها السلام .

روايات ودلائل.....101
ومن نافلة القول أن نختم هذه الدراسة بروايات تاريخية تدل على أن الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام هما إبنا رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، لتتميم الفائدة وتعميمها .

الخاتمة.....107
مطلب في بيان مطنب لكلمة واحدة قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ابنته الزهراء عليها السلام :
" فاطمة أُمُّ أبيها " .

بيتان للشيخ في مدح الزهراء عليها السلام.....131

نهج الكوثريّة.....133

وهي قصيدة للمؤلف في مدح الزهراء البتول عليها السلام ، على غرار القصيدة الكوثرية للسيد رضا الهندي رحمه الله تعالى في مدح أمير المؤمنين عليه السلام .

المصادر.....137

الفهرست.....141